النظرية الجمالية في البلاغة العربية
دراسة بلاغية نقدية

بقلم الدكتور

أسامة شكري الجميل العدوي

دكتوراه اللغة العربية قسم البلاغة والنقد الأدبي

مدرس في الأزهر ، ومعار إلى دولة الكويت ـ جمهورية مصر العربية

المجلد السادس والعشرون للعام ٢٠٢٢م

الجزء الرابع (إصدار يونيو)

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

النظرية الجمالية في البلاغة العربية دراسة بلاغية نقدية

أسامة شكري الجميل العدوي

دكتوراه اللغة العربية قسم البلاغة والنقد الأدبي ـ جامعة الأزهر الشريف ، ومعار إلى دولة الكويت ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : ossamaeladawi@gmail.com

الملخص

المتأمل في تراثنا البلاغي والنقدي يخرج بكثير من المعطيات، التي تثبت أن جهود السابقين قد باكرت في عديد من أصولها وفروعها المناهجَ النقدية الحديثة، وما زالت تلك الجهود هي عدة الناقد التي بها يستطيع تقويم النص الأدبي، وإبراز خصائصه الفنية وسماته الجمالية التي أنجزها المبدع في نتاجه الفني وعمله الإبداعي، لقد انصرفت همم البلاغيين والنقاد قديماً إلى بيان مواطن الجمال والجلال في البيان القرآني والشعر العربي، وسارعت إلى تأطير القواعد البلاغية والنقدية التي تسهم في توفير المعايير الجمالية في الأساليب الأدبية، وفق معايير منسقة وآليات إجرائية متقنة.

وإذا كانت الجمالية لم ترد في تراثنا العربي مصطلحاً أدبياً ، فقد تناولها نقادنا الأوائل وصفاً ضمنياً في مباحث الإعجاز البياني التي اختص بها النص القرآني، وفاق غيره من وسائل التعبير وفنون التصوير، وعلم البلاغة: أبرز علوم العربية التي وُظفت توظيفاً كبيراً في الكشف عن جماليات الخطاب القرآني،فسنوا القواعد البلاغية، ووضعوا المعايير الفنية التي تعين على فتق أكمامها، ومعرفة أسرارها، وتحديد أوجه إعجازها، والغوص في خضمها الزاخر باللآلئ الفنية والعناصر الجمالية، التي تحدى بها البيان القرآني أرباب الفصاحة وأعلام البلاغة ، وقد عملت البلاغة على رصد الفرائد القرآنية فجاسوا خلالها ، وبحثوا عذوبة جرسها وروعة تركيبها، وحسن تأليفها ، ومواطن جمالها وقد ساهمت درايتهم بالقواعد اللغوية في معرفة جماليات التماسك النصي والانسجام المعنوي في وحداته الخطابية وتراكيبه البيانية .

الكلمات المفتاحية: النظرية ، الجمالية ، البلاغة ، العربية ، النقدية.

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

Aesthetic theory in Arabic rhetoric, a critical rhetorical study

Osama Shoukry Gemayel Al-Adawi
Department of Rhetoric and Literary Criticism, Arabic Language, State of Kuwait .
Email: ossamaeladawi@gmail.com

Abstract

The contemplator of our rhetorical and critical heritage comes out with many data, which prove that the efforts of the predecessors have pioneered the modern critical methods in many of its origins and branches, and these efforts are still the critic's tools with which he can evaluate the literary text, and highlight its artistic characteristics and aesthetic features that the creator accomplished in his artistic production and creative work. The rhetoricians and critics in the past were devoted to explaining the places of beauty and majesty in the Qur'anic statement and Arabic poetry, and hastened to frame the rhetorical and critical rules that contribute to providing aesthetic standards in literary methods, according to coordinated standards and elaborated procedural mechanisms.

If aesthetics was not a literary term in our Arab heritage, our early critics dealt with it implicitly in the investigations of rhetorical miraculousness in which the Qur'anic text was specialized, and surpassed other means of expression and the arts of illustration, and the science of rhetoric: the most prominent sciences of Arabic that language that employed a great deal in revealing the aesthetics of The Qur'anic speech, they enact rhetorical rules, and set technical standards that help to reveal its ambiguity, know their secrets, and determine their miraculous aspects, and diving in its midst, full of artistic pearls and aesthetic elements, with which the Qur'anic statement challenged the masters of eloquence and the masters of rhetoric. The textual and moral harmony in its rhetorical units and graphic structures.

Keywords: Theory-Aesthetic-Rhetoric-Arabic-criticism.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

المتأمل في تراثنا البلاغي والنقدي يخرج بكثير من المعطيات ، التي تثبت أن جهود السابقين قد باكرت في عديد من أصولها وفروعها المناهجَ النقدية الحديثة ، وما زالت تلك الجهود هي عدة الناقد التي بها يستطيع تقويم النص الأدبي ، وإبراز خصائصه الفنية وسماته الجمالية التي أنجزها المبدع في نتاجه الفني وعمله الإبداعي ، لقد انصرفت همم البلاغيين والنقاد قديماً إلى بيان مواطن الجمال والجلال في البيان القرآني والشعر العربي ، وسارعت إلى تأطير القواعد البلاغية والنقدية التي تسهم في توفير المعايير الجمالية في الأساليب الأدبية ، وفق معايير منسقة وآليات إجرائية متقنة .

والجمالية واحدة من المفاهيم النقدية الحديثة التي تدرس المنهجية التشكيلية للإبداعات الأدبية والأعمال الفنية ؛ لأنها تهتم بتناغم التعبير وروعة التصوير، وانسجام التركيب في وحدات أسلوبية وسياقات تعبيرية ، متناغمة اللفظ ، مُحْبَكَة السبك ، متجانسة النظم ، تمنح المتلقي متعة فنية وروعة جمالية ، وفق معطيات نقدية ، تُعنى بجماليات النص الأدبي والخطاب الأسلوبي ، ومعرفة تأثيره النفسي علي منافذ الحس ومدارك العقل ، فتقف على تناسق أصواته في مبانيها وتحقيق الانسجام في معانيها ، وتدرس الصوتيات ، واللسانيات ، والمعاجم ، والدلالة وغيرها من المفاهيم اللغوية ، وتحديد مناهج التعبير وخصائص التصوير التي تتكون منها النصوص الأدبية ، وقياس مواءمتها البنيوية للمضامين الغائية ، التي تجعل النص جميلاً له مسوح قشيبة وظلال رتيبة ، تبعث الجمال في نفوسنا وترسل البهجة في عقولنا.

وإذا كانت الجمالية لم ترد في تراثنا العربي مصطلحاً أدبياً ، فقد تناولها نقادنا الأوائل وصفاً ضمنياً في مباحث الإعجاز البياني التي اختص بها النص القرآني ، وفاق غيره من وسائل التعبير وفنون التصوير، وعلم البلاغة : أبرز علوم العربية التي وُظفت توظيفاً كبيراً في الكشف عن جماليات الخطاب القرآني وتأثيره البياني ، فسنوا القواعد البلاغية واستقصوا الشواهد القرآنية والأبيات الشعرية ، ووضعوا المعايير الفنية التي تعين على فتق أكمامها ، ومعرفة أسرارها ، وتحديد أوجه إعجازها ، والغوص في خضمها الزاخر باللآلئ الفنية والعناصر الجمالية ، التي تحدى بها البيان القرآني أرباب الفصاحة وأعلام البلاغة ، وقد عملت البلاغة على رصد الفرائد القرآنية فجاسوا خلالها ، وبحثوا عذوبة جرسها وروعة إيقاعها ، وحسن تأليفها ، ومواطن جمالها ، وانسجام تركيبها ، وآفاق تصويرها ، وفروق سياقها ، وتنوع مدلولها ما بين حقيقة ومجاز ، وتشبيه واستعارة ، وكناية وتعريض ، وفصل ووصل ، وتقديم وتأخير .... إلى غير ذلك من فنون التعبير ومناحي التصوير، التي تغادر في النفوس تأثيراً جمالياً وشعوراً وجدانياً ينتج مع أول دفقة من وحدات البيان القرآني ، تطرق السمع وتأسر القلب ، من روعة علاقاتها الصوتية ، ودلالاتها التعبيرية ، وقد ساهمت درايتهم بالقواعد اللغوية من معرفة جماليات التماسك النصي والانسجام المعنوي في وحداته الخطابية ونغمته الإيقاعية .

وتنطلق هذه الدراسة من ثلاث قراءات تسهم في بناء نظرية جمالية عربية :

أولهما : القراءة الاستحضارية التي ترصد مراحل بناء النظرية الجمالية في المدرسة النقدية الغربية وتطورها ، بداية من العصر اليوناني

وحتى العصر الحديث ، وكيفية تحولها من المدرسة الفلسفية إلى المدرسة النقدية الأدبية .

ثانيهما : القراءة الاسترجاعية التي تنتهج سبيل موروثنا اللغوي والبلاغي والنقدي ، فترصد التعريف بالجمالية الأدبية في المعاجم العربية ، وتقف على منابعها الدلالية ، وتتبع بواكيرها في فكرنا النقدي وموروثنا البلاغي ، وتحديد معاييرها ومعرفة مقاييسها ، والوقوف على أنواع الجمال الأدبي وتطوره في الشعر العربي والبيان القرآني.

ثالثهما : القراءة الاستنتاجية ، التي توفق بين القراءتين بغية الوصول إلى ترسيخ مفهوم واضح لما يمكن أن يسمى النظرية الجمالية العربية ، وتطبيقها على عدد من الشواهد التي عالجها البلاغيون والنقاد قديماً للوقوف على المفاهيم الجمالية ، وتحديد مظاهرها التي تتعدد معها مصادر التأويل ، ومنابع التفسير ضمن منهج بلاغي يُعنى برصد الظواهر الجمالية في البلاغة العربية وتصنيفها ، والوصول إلى وسائلها وطرقها وأساليبها ، بغية النهوض بها والسعي إلى تطويرها ، بعيداً عن الجمالية الغربية وتوقِّي المسير في دروبها ، وتَلافِّي تطبيقها على نتاجنا الأدبي وموروثنا البلاغي ، وإنما غايته الوقوف على مناحي الاتفاق والاختلاف بين تراثنا البلاغي والنقد الغربي من ناحية ، وتتبع المعايير النقدية والبلاغية للنظرية الجمالية في البلاغة العربية من ناحية أخرى ، بهدف الوصول إلى التطبيق الفني الجمالي للنص الأدبي ، ورصد المفاهيم الجمالية في تراثنا البلاغي والنقدي ، والتطبيق الأمثل للمعايير الجمالية في بناء الأساليب الأدبية من خلال رؤية تراثية ، تمثل هذه الدراسة لبنة في صرحها ودعامة في بنائها.

وقد اقتضت هذه الدراسة تقسيمها إلى مقدمة وستة مباحث، وثبت للمراجع والمصادر التي استقى البحث منها مادته وفهرس للموضوعات:

أما المقدمة فاشتملت على بيان أهمية الجمالية ، وتحديد منابعها الدلالية في المعاجم العربية والدراسات اللغوية والبلاغية .

ثم جاءت المباحث على النحو التالي :

المبحث الأول : (النظرية الجمالية في جذورها العربية) وقد اشتمل على التعريف بمصطلح الجمالية في المعاجم العربية والدراسات البلاغية النقدية لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : (بواكير الجمالية في المدرسة الغربية) وقد تضمن الحديث عن روافد النظرية الجمالية لدي المدرسة الغربية من لدن العصر اليوناني وحتى العصر الحديث.

المبحث الثالث : (الجمالية في فكرنا البلاغي وتراثنا النقدي) وقد اشتمل على الغاية الجمالية التي عملت المدرسة النقدية العربية قديماً على توفيرها ، ووضعت المعايير الفنية والمقاييس البلاغية التي تنظم أطرها ، وتستخرج درها وفيه مطلبان :

أولهما ــ البلاغة العربية والغاية الجمالية .

ثانيهما ــ فاعلية النظرية الجمالية في البلاغة العربية .

المبحث الرابع : (بواكير الفكر الجمالي في موروثنا البلاغي والنقدي) وقد اشتمل على رصد الآراء الجمالية والقيمة التعبيرية لعلم الجمال العربي في تراثنا البلاغي والنقدي ، وفيه مطلبان:

أولهما ــ الآراء النقدية للجمالية العربية في فكرنا البلاغي والنقدي .

ثانيهما ــ الإدراك الجمالي المادي والمعنوي في فكرنا البلاغي ووعينا النقدي .

المبحث الخامس : (المعايير الجمالية والمقاييس الفنية في موروثنا البلاغي والنقدي) وقد اشتمل على رصد بعض المعايير والمقاييس التي تحقق الجمال الفني في فكرنا البلاغي والنقدي ، وفيه أربعة مطالب :

أولهما ــ التناسق التعبيري والتناسب التركيبي.

ثانيهما ـ الانسجام الصوتي والتوازن الإيقاعي

ثالثهما ــ الفصاحة عنصر الجمال الصوتي .

رابعهما ــ الإيحاء عنصر الجمال التخييلي .

المبحث السادس : (أنواع الجمال الأدبي في موروثنا البلاغي والنقدي) وقد اشتمل على بيان فاعلية الجمال الحسي والمعنوي ، والتحليل النفسي في الدرس البلاغي والنقدي. وفيه مطلبان:

أولهما ــ الجمال الحسي والمعنوي في التراث البلاغي والنقدي.

ثانيهما ــ التطور الجمالي والتحليل النفسي في التراث البلاغي والنقدي .

ثم جاءت الخاتمة لتشمل أهم النتائج التي توصل إليها البحث ، آملاً من الله أن يكون هذا الجهد خطوة إلى نظرية عربية جمالية ، تأخذ من التراث البلاغي أرومته وأصالته ، ومن الحديث جدته وروعته .

وأخيراً أرجو من الله وضوح الرؤية وجلاء البصيرة ، ولست أدعي العصمة من الزلل ، أو التنزه عن الخطأ والخلل ، فالكمال لله وحده ، وإني لموقن بأني مهما بذلتُ من جهد وتكبدتُ من عناء ، فلن أكون بمنجاة من الزلل والقصور ، أو بمأمن من الكبوة والعثار ، وإن سلكتُ جدداً من الأرض ناصعة ؛ لأن هذا طبيعة الإنسان منذ أن وُجد وكان .

(وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) هود : الآية ٨٨

د / أسامة شكري الجميل العدوي

المبحث الأول

(النظرية الجمالية في جذورها العربية)

الجمالية الأدبية نظرية نقدية وحركة انطباعية تُعنى برصد الانفعالات النفسية والمشاعر الوجدانية إزاء النصوص الفنية ، ومن غاياتها الاهتمام بالجمال الفني والوعي الإبداعي ، وترقية الذوق وتنمية الحس لمعرفة القيم الجمالية في الأنماط الفنية ، وهي حركة تأثرية ومقاربة بلاغية ، تنتهج سبيل الألوان الأسلوبية ، فتفسر خصائص تركيبها ، وتؤول انحرافات دوالها التي تثير السرور وتمنح الحبور بجمال تداعياتها ، ونضارة تمثيلها ، وعوامل تأثيرها ، ورونق توظيفها للبنيات الداخلية والخارجية للنصوص الأدبية ، والبلاغة العربية أهم مرجعيات الجمالية المعرفية وآلياتها الإجرائية التي تعمل على توفير العنصر الجمالي في السياق الإبداعي ؛ لأنها ليست مجرد معايير معرفية تدرس أحوال اللفظ العربي ومدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، أو معرفة وجوه تحسين الكلام ، وإنما هي معايير فنية مهمتها الأولى منح المتلقي الإدراك الجمالي والتصور الخيالي للعمل الإبداعي والنتاج الشعري .

والجمالية في البلاغة العربية قديمة قدم التراث العربي ، إذ لا يخلو نص أدبي من فنونها ، ولا يكتسب الكلام روعته إلا بمعاييرها ، فلا يمكن اختزالها في جانب واحد من علومها ، أو حصرها في قضية واحدة من قضايا خطابها ، وإنما فيما تفرزه هذه العلوم كلها من معايير فنية ، تنتهج سبيل السمات الأسلوبية ، للنتاجات الإبداعية ، وتبرز جمالها وحس استعمالها ، وفق منهج فني ومنوال أسلوبي يظهر فاعلية تراثنا البلاغي في تحليل الخطاب الفني والنص الأدبي ، بمرجعيات معرفية وآليات إجرائية تعالج براعة اللفظ ،

وجودة السبك ، وحسن التركيب ، وروعة التعبير ، وسلامته من العيوب التي تخل بفصاحته ، وتبحث نقل دلالته من المعاني اللفظية إلى المعاني الجمالية ، التي يلج منها المتلقي إلى دهاليز الصور الذهنية التي تحملها الألفاظ والتراكيب داخل النصوص الأدبية ، كما تعالج الجمالية في البلاغة العربية إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة تثري الدلالة ، وتفتق آفاق الخيال بالصور التخييلية والمعاني التكثيفية ، دون أن تغفل دور المحسنات اللفظية والمعنوية في العمل على تحسين المعنى وتوضيحه في ذهن السامع ، حتى ينسجم اللفظ مع المعنى بقصد الإفهام والتوضيح والتزيين والتحسين.

إن الموروث الكبير الذي تركه لنا البلاغيون والنقاد يمكن أن يكون مهاداً تنظيرياً لنظرية جمالية عربية تنطلق إلى فضاءات أوسع مما وصلت إليه طاقات السابقين ، والنهوض بها إلى آفاق بعيدة من التطور ، وليست هذه الدراسة سوى إعادة قراءة تراثنا النقدي والبلاغي في لغة حديثة ، ومراجعة فكر رواد المدرسة النقدية العربية وقراءته في ضوء النظرية الجمالية ، التي طار بها أنصار النقد الحديث فرحاً ، وعدوها فتحاً مبيناً ، ونصراً مؤزراً ، وما هي إلا ترديد أمين لما ذكره نقادنا الأوائل على نحو متفرق في طروحاتهم النقدية مثل ابن قتيبة ، والجاحظ ، والقاضي الجرجاني ، وابن سنان الخفاجي ، وأبي هلال العسكري ، والإمام عبد القاهر الجرجاني ، وابن رشيق القيرواني ، وحازم القرطاجني ، وغيرهم ، ما يؤكد أن تراثنا البلاغي والنقدي قد حائز قصب السبق والريادة في الاهتمام بجمالية النصوص الأدبية والنتاجات الإبداعية .

الجمالية لغة : " اسم مؤنث منسوب إلى جمال ، والكلمة : مصدر صناعي مشتقٌ من الجمال ، وقد أقبلت كلمة الجمال تشق عبابها في المعاجم العربية من البهاء والتزيين والتحسين ، فعرفها **ابن سيدة** بقوله : **الجَمَال** : "الحُسْنُ ، يكون في الفِعْل والخَلْق. "(١) ، وفي اللسان : **الجمال** : مصدر الجَمِيلِ ، والفعلُ جَمُلَ ..وجَمَّلهُ : أي زينه ، والتجمل : تكلف الجميل ، وجَمَّلَ الله عليك تجميلاً ، إذا دعوت له أن يجعله الله جميلاً حسناً .....قال **ابن الأثير**: والجمال يقع على الصور والمعاني ، ومنه الحديث :" **إن الله جميل يحب الجمال**"(٢) ، **والجمال** : ضد القبح ، وهو الحسن والزينة ، من جَمُلَ جمالاً ، حَسُنَ خَلْقَهُ فهو جميلٌ ، والجمع جُمَلاءُ ، وجُمَال ، وجَميلون . والجميلُ: مصدر الجمال ، ومنه قوله تعالى : (**وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُون**)(٣) أي بهاءُ وحُسنٌ ، والجمالُ : الحسن يكون في الفِعْل والخَلْق ، وجَمَّله : زينه ، وامرأة جمْلاء ، وجميلةٌ ، و" جمل الشيء جمالاً: تم حسنه "(٤) ، وعند **سيبويه** : " الجمال رقة الحسن "(٥) ، و" والجمال عند **الراغب الأصفهاني** : " الحسن الكثير، وهو ضربان : أحدهما

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، لابن سيدة ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، الجزء السابع ، ص ٤٥٠ ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م .

(٢) لسان العرب ، مادة : جمل ، الجزء الأول ، ص ، ٦٨٤، ٦٨٥ طبعة دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ.

(٣) سورة النحل : الآية ٧

(٤) معجم الأفعال : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ص ١٠ : ١٥٨ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣ م

(٥) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، دار الهداية ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، بدون تاريخ الجزء ٢٨ : ٢٣٦ .

يختص بالإنسان في نفسه وفعله ، والثاني : ما يصل منه لغيره "[١] ، والجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف " [٢].

وقد ذكر **الثعالبي** في كتابه " **فقه اللغة** " عدداً من المفردات التي تدل في بنائها اللغوي واستعمالها الدلالي على معنى الجمال ، وجعل فصلاً كاملاً في مصنفه لتقسيم الحسن ، خصص فيه لكل مفردة حقل استخدامها ومضمار توظيفها بقوله :" الوضاحُ الرجل الحسن الوجه ، والغيلمُ والغانية المرأة الحسناء ، والأسجعُ الوجه المعتدل الحسن ..... والصباحةُ في الوجه ، والوضاءةُ في البشرة ، والجمالُ في الأنف ، والحلاوةُ في العينين ، والملاحةُ في الفم، والظرفُ في اللسان، والرشاقةُ في القدِّ ، واللباقةُ في الشمائل، وكمالُ الحسن في الشعر"[٣].

والجمال عند القرطبي : ما يتجمل به ويتزين ، والجمال : الحسن . وقد جَمُلَ الرجل – بالضم – جمالاً فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضا ، عن **الكسائي** وأنشد :

فَهِيَّ جَملاءُ كبدرٍ طَالِعٍ ... بذت الْخَلْقَ جَمِيعًا بِالْجَمَالِ

---

(١) التوقيف على مهمات التعريف ، محمد عبد الرؤوف المناوي ، تحقيق د : محمد رضوان الداية ، الجزء الأول ، ص ٢٥١ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ودار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

(٢) التعريفات : علي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الإبياري ، الجزء الأول ، ص ١٠٥ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ .

(٣) فقه اللغة وأسرار العربية للثعالبي ، تصحيح الشيخ محمد منير الدمشقي ، ص ٦١، ٦٢ الطبعة الأولى ١٣٤١هـ ١٩٢٣م .

وقول أبي ذؤيب :

جَمَالَكَ أَيُّهَا الْقَلْبُ الْقَرِيحُ ... سَتَلقَى مَنْ تُحبُّ فتَستَرِيحُ [١]

يريد : الزم تجملك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمال يكون في الصورة وتركيب الخلقة ، ويكون في الأخلاق الباطنة ، ويكون في الأفعال . فأما جمال الخلقة فهو أمر يدركه البصر ويلقيه إلى القلب متلائما ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر . وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية لجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئي بالأبصار موافق للبصائر ، ومن جمالها كثرتها ، وقول الناس إذا رأوها: هذه نعم فلان ، قاله السدي ؛ ولأنها إذا راحت توفر حسنها وعظم شأنها ، وتعلقت القلوب بها ، لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسمنة وضروعاً "[٢].

إن الجمال شعور ذاتي وإحساس غريزي يتولد في أعماق النفس الإنسانية عند التفاعل مع الأشياء التي نهواها، ولا نستطيع جمح نفوسنا أمام دلها ونجواها ، وإدراك الناس له أمرٌ نسبيٌ ؛ لتمايز الناس في طبائعهم ، وتباينهم في سلائقهم ، فما يراه البعض جميلاً قد يراه الآخر قبيحاً ، وما يراه الآخر قبيحاً قد يراه البعض جميلاً ، والحكم به يحتاج إلى ومضة خاطفة من

(١) ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، تحقيق د أحمد خليل الشال ، ص ٩٩ ، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية ، بور سعيد ، الطبعة الأولى ٢٠١٤م .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي ، تحقيق : أحمد البردوني ، وإبراهيم أطفيش ، الجزء العاشر ، ص ٧٠، ٧١ دار الكتب المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٦٤ م

الجمال الفطري والجلال الروحي حتى تنطلق النفوس من ملاحته الظاهرية إلى محاسنه الباطنية .

الجمالية اصطلاحاً : من الصعوبة تحديد مفهوم جامع مانع لمصطلح الجمالية ؛ لتنوع حقولها ، وتعدد مناهجها ، وكثرة طرائقها ، وتداخل مدلولها في الدراسات الفلسفية والعلوم الاجتماعية والمناهج النقدية ، والمذاهب الصوفية ، والنتاجات الفنية المتنوعة ؛ لكنها تشترك جميعاً في الجبلة المادية الذي تدركها الحاسة أو الماهية المعنوية التي تقع في النفس وتدور في خلجاتها الروح ، إنها طبيعة انفعالية تتأثر بالتجربة الفنية ، فتحفل بالخصائص الأسلوبية التي تمنح النص الإبداعي جمالاً فنياً ، وأثراً نفسياً يجعل الأرواح متداعية عليه منصرفة إليه ، تهش لانسجام جزئياته وتناسق عباراته.

وتأتي **الجمالية** في استعمالها " نعتاً لكل ما يتصل بالجمال أو ينسب إليه ، وتستعمل أيضاً اسماً ، وتعني العلم الذي يعكف على الأحكام التقييمية التي يميز بها الإنسان الجميل من غير الجميل ؛ ولذلك أطلق عليه بعضهم **علم الجمال** ، على أن هناك من يلجأ إلى اللفظ المُعَرب **استاطيقا** ، وفي الفلسفة يميز بين الجمالية النظرية أو العامة ، والجمالية التطبيقية أو الخاصة ....**فالأولى** : تُعنى بمجموع الخصائص التي تُولّد لدي الإنسان إدراك الجمال أو الإحساس به **والثانية** : تُعنى بالأشكال المختلفة للفن " [١].

وننتقل إلى تعريف آخر أغدق شمولية واستيفاءً لمصطلح الجمالية اللغوية والأدبية ؛ لأنه يعالج الجمالية في أبعادها المختلفة ، وتجلياتها المتنوعة

---

(١) الأسلوب والأسلوبية ، د عبد السلام المسدي ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ليبيا ص ص ١٤٧ بدون تاريخ .

داخل النتاج اللغوي والعمل الإبداعي ، فهي " نزعة مثالية تبحث في الخلفيات التشكيلية للإنتاج الأدبي والفني ، وتختزل جميع عناصر العمل في جمالياته ، وترمي النزعة الجمالية إلى الاهتمام بالمقاييس الجمالية بغض النظر عن الجوانب الأخلاقية ، انطلاقاً من مقولة (**الفن للفن**) وينتج كل عصر جمالية إذ لا توجد جمالية مطلقة ؛ بل جمالية نسبية تساهم فيها الأجيال، والحضارات ، والإبداعات، والأدبية والفنية ، ولعل شروط كل إبداعية هو بلوغ الجمالية إلى إحساس المعاصرين " [١].

وهذا التعريف يجسد الجمالية اللغوية في البلاغة العربية التي استمدت حسنها في مبتدئ أمرها من البيان القرآني والشعر العربي ، فالقرآن مضمارها ، ومستهل حقلها من لدن نشأتها وتكوينها ، حتى تطورها وارتقائها ، كما احتل الشعر العربي في عصوره المختلفة مصدراً ثراً لتشكيل فنونها وتأطير علومها ، وتتجلى المهمة الفنية التي تضطلع بها البلاغة العربية، في استجلاء الخصائص الأسلوبية الجميلة ، والتراكيب اللغوية البديعة التي امتاز بها البيان القرآني المعجز في نظمه البديع وأسلوبه الرفيع ، وجزالة أثرها الجمالي في النفس الإنسانية ومشاعرها الوجدانية ، وقد تمكن القدماء من وضع المعايير الفنية والمقاييس البلاغية المنضبطة التي تبحث التشكيلات الأسلوبية المتنوعة للنص القرآني في وحداته الخطابية المتباينة ، دون أن تغفل الجانب الأخلاقي الذي تراخت فيه المدرسة الغربية ، ولا أن تردد "**مقولة الفن للفن** "؛ لأن النص القرآني تشريع وتهذيب ومنهج حياة وتأديب ، وإذا كان لكل عصر جمالية مختلفة ، تنشأ من تباين ثقافاته وتنوع

---

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، د: سعيد علوش ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، و ، سوشبريس ،الدار البيضاء، المغرب، ص ٦٢، الطبعة الأولى ١٩٨٥م

حضاراته ، وتمايز نتاجاته الأدبية وفنونه الإنسانية ، فإن **الجمالية اللغوية** تظل ثابتة في البلاغة العربية ؛ لأنها تستمد حقلها الدلالي من البيان القرآني والتنزيل السماوي ، ومهما يكن من تنوع فإن الجمالية في تراثنا النقدي والبلاغي تبقى غايتها الفنية هو تحقيق المتعة النفسية واللذة الوجدانية ، في أعماق النفس الإنسانية .

وجمالية اللغة تلفت الأنظار إلى حسن سبكها ، وجودة تركيبها ، وتناسق أجزائها ، والبلاغة هي السياج الآمن لتوفير هذا الحسن والحكم به في ظلّ معاييرها وفيء مقاييسها ، فإذا " قمنا بتحليل قطاع من التعبير وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة جمالية ، فاللغة نفسها في جميع مظاهرها إنما هي تعبير خالص ، ومن ثم فهي علم جمالي ، وهي أصوات منظمة مهيأة من أجل التعبير "[١] ، وتبقى الأساليب البلاغية ضامنة إطارها الجمالي وسياقها التعبيري ومعيارها الفني .

(١) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، د: سعيد علوش ، ص ٦٣ .

المبحث الثاني

(بواكير الجمالية في المدرسة الغربية)

علم الجمال هو : " علم الأحكام التقويمية التي تميز بين الجميل والقبيح، والمعنى الشامل لعلم ونظرية النشاط الجمال للإنسان، والمضمون الجوهري للنشاط الجمالي هو تشكيل العالم وفقاً لقوانين الجمال ...وعلم الجمال يبحث النشاط الجمالي بوصفه ملكة خلاقة عامة للإنسان " (١).

وتستمد **النظرية الجمالية** روافدها من مصطلح الجمال ، الذي ورد ذكره لدى فلاسفة اليونان ، فهم أول من تناولوا فحواه وفصلوا مغزاه ، ووضعوا اللبنات الأولى التي انطلقت منها النظرية الجمالية الغربية ، وقد اختلف الفلاسفة اليونانيون قبل سقراط في تعريف الجمال ، أو تحديد معايير محددة له ، **فالسوفسطائيون** ذكروا " أنه لا يوجد جميلٌ بطبعه ، بل يتوقف الأمر على الظروف وعلى أهواء الناس ، وعلى مستوى الثقافة والأخلاق .....وأما **الفيثاغوريون** فقالوا : إن الجمال يقوم على النظام ، والتماثل ، والانسجام "(٢) .

ويعتبر **(سقراط ٣٩٩ ق . م)** أول من بحث الجمال بطريقة منظمة ، ومعيار أخلاقي مرجعه الذات العاقلة ، والضمير الباطن المرتبط بالخير والنفع والعدل ، الذي " يلوح في المعنويات والشيء المفيد ، والخير الذي يعود

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، الجزء الأول ، ص ١٣٧١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م .

(٢) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٥٥ .

على الإنسان " [١]، بما ينفعه ولا يضره ، ويؤثر في مشاعره الإنسانية وحياته الأخلاقية ، فالجمال عنده جمال هادف ، مرتبط بسجايا الزهاد وخلقان العباد ، غايته المثل العليا التي تخدم الذات الإنسانية وقيمها السلوكية .

وأما (**أفلاطون ٣٤٨ ق . م**) فهو المؤسس الحقيقي لعلم الجمال ، فالجمال عنده : هو المثل العليا التي تتجلى في النفوس والعقول والأرواح ، والصور المعنوية لمعنى الخير والعدل والمساواة ، وقد ربط بين المعنى الأخلاقي والجانب الجمالي ، ونظرته للجمال " تختلف ... عن النظرة اليونانية بوجه خاص ....فهو يضيف قيمة كبيرة إلى الجمال ؛ حين يربطه بالأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة التي تحمل معنى الخير ، فليس الجمال في الصورة الحسية التي تُحدث في النفس لذة مادية ؛ وإنما الجمال الحقيقي هو جمال الحق والخير " [٢] والعدل والمساواة ، الذي يعود على الإنسان بالنفع واليمن والبشر ؛ ولأن المعاني النفسية والقيم الأخلاقية تسمو على السيميائيات الحسية والمظاهر المادية .

وإذا كان الجمال عند **أفلاطون** صورة عقلية للخير والحق والعدل الذي ينبعث في النفس والروح ؛ فإن وحدته المجردة وديباجته المطرزة تلوح في المظاهر المرئية والصور المادية ، فـ " تارة يكون صورة عقلية لمضمون الخير والعدل ، وتارةً أخرى يكون في الشكل وليس المضمون ، فالشكل هو ما يجعل العمل الفني جميلاً " [٣] ، وهو بهذا الفهم " ينزع نزعة مثالية في فهم

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، ، الجزء الأول ، ص ١٤١٨ .

(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ١٨١.

(٣) التفضيل الجمالي دراسة في سيكولوجية التذوق الفني ، د شاكر عبد الحميد : ص ١٥ ، سلسلة عالم المعرفة العدد ٢٦٧ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت .

الجمال ، وينزع نزعة موضوعية عندما يلتمس مظاهر هذا الجمال في الأشياء ، ففي الأشياء جمال ، وهو جمال نسبي بالقياس إلى مُثل الجمال ، وماذا يكون مثال الجمال سوى الصورة المجردة من الأشياء للجمال ، بعبارة واحدة نستطيع أن نلخص أفلاطون في فهمه للجمال في أنه كان تجريدياً ، مثالياً ، وأنه كان يصبو إلى فنٍّ سام يكشف للحس عن عالم المُثل "[١].

والجمال لدى المدرسة **الرواقية اليونانية** (٣٤٠ ق.م – ٢٧٠ ق.م)[٢] " ينحصر في أبحاثهم في النحو والخطابة وقد ترتب على نزعتهم المادية أن وحّدوا بين الصوت في الكلمة وبين المعنى ، وعنوا باللغة باعتبارها الوجه الاخر للفكرة " [٣] ، ولهذا فالجمال الفني في السياق الأدبي لا يمكن حصره في الشكل وحده بعيداً عن المضمون ، وإنما يتحقق فيهما معاً .

وأما (**أرسطو ٣٢٢ ق . م**) فالجمال عنده يلوح في تنظيم العلائق الحسية على نحو رتيب ونسق بديع ، يظهر تناسق أجزائه وحسن نظامه

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي ، د : عز الدين إسماعيل ، ص : ٣٧، دار الفكر العربي، القاهرة ، ١٩٩٢م .

(٢) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور الذي أنشأ المدرسة الأبيقورية التي سادت لستة قرون، وهي مذهب فلسفي مؤداه أن اللذة وحدها هي الخير الأسمى ، والألم وحده هو الشر الأقصى ، والمراد باللذة التحرر من الألم والاهتياج العاطفي والشهوة ، وأن المتعة الحقيقية لا تتم للمرء من طريق الانغماس في الملذات الحسية ؛ بل من ممارسة الفضيلة ، ويقر صاحب المذهب الأبيقوري بأن الإنسان كالحيوان يسعى إلى غرائزه بفطرته ؛ ولكنه حوّل اللذة الحسية إلى مذهب في الزهد ، فاللذة عنده تجمع بين الزهد والمنفعة ، وقد دعا إلى الحياة السعيدة ، التي تحول دون أن تستعبد الإنسان شهوته .

(٣) فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها ، د أميرة حلمي ، ص ٨٨ ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٩٨م .

"فالجميل سواء أكان كائناً حياً ، أم شيئاً مكوناً من أجزاء ، بالضرورة ينطوي على نظام يقوم بين أجزائه هذه ، وله عِظَمٌ يخضع لشروط معلومة ، فالجمال يقوم على العِظَمِ والنظام "(١) ، ولهذا فقد ترددت عنده بعض معايير الجمال ، كالتوازن ، والانسجام ، والتناسب ، والتناظر ، وحيثما وجدت تحقق الجمال ، وقد آثر **أرسطو** " الفصل بين الجميل والخير ، وقصر الجميل على الجميل الحسي ، وبهذا وضع الجميل مضاداً للنافع ، وأدرج البحث عن الجميل في ميدان البحث في الفنون والآداب ، بمعزل عن الأخلاق ، ومن هنا بحث الجميل على أساس المعايير التي رأيناها من قبل عند الفيثاغوريين وديمقراطيس ، فجعل معيار الجمال في النظام والانسجام ، والسيمترية وخصوصاً في انتظام الأجزاء " (٢).

وهكذا تتلاقى الرؤيتان الأرسطوية والأفلاطونية حول النظرية الجمالية، التي كانت مهاداً طبيعياً لعلم الجمال في العصر الحديث ، فكلاهما يرى أن الجمال في النتاج الفني ننشده في التناغم الإيقاعي ، والانسجام التركيبي ، والتناسب الموضوعي الذي يسري في أوصال العمل الإبداعي ، بشرط أن يكون الجمال ناشراً للخير ذائعاً للحق والعدل حتى يمنح الشيء جمالاً ويكسبه جلالاً وكمالاً .

– والجمال عند **أفلوطين (٢٠٤ ق.م – ٢٧٠ ق.م)** يمثل المهاد الأول للنظرية الجمالية الأدبية ، والانتقال بها من المفهوم الفلسفي إلى المفهوم الأدبي ، وهو نابع في مفهومه من الصورة التي يمنحها الخالق إلى المخلوق ،

---

(١) فن الشعر ، أرسطوطاليس ، ترجمة وشرح : عبد الرحمن بدوي ، ص ٢٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣م.

(٢) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، الجزء الأول : ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

ومن المبدع إلى الأدب ، ويقع في الصور المادية التي تقع عليها الحاسة ، ويُدرك البصرُ والسمعُ التناسبَ بين أجزائها ويتبين التكافؤ في تراكيبها ، والجمال في الأدب يقع في الصور المعنوية والقيم الباطنية ، ومن تنظيم الكلمات وتناسق العبارات والقيم والعادات التي تسمو بها الذات ، وتدركه الحاسة " وتنطق النفس باسمه كما لو كانت تعرفه من قبل ، فتقبله وتنسجم معه " (١).

وفي العصر الحديث أخذت المدرسة الفلسفية تُفصّلُ القولَ في كلمة جمال ، فأنشأت لها مصطلحاً جديداً أطلقت عليه مسمى **الإستاطيقا** ، وأصبح علماً قائماً بذاته ، ونال شهرة واسعة في ميادين البحث المختلفة وليس الفلسفة وحدها ، وقد أخذت المدرسة الفلسفية فيه اتجاهاً حسياً يذهبون فيه مذهبا موضوعياً ، يقبع في الجوانب الشكلية والأطر الحسية للأشياء ، وآخر روحياً ينزوي في المشاعر الإنسانية والأحاسيس الوجدانية ، وهذا يعني أن الأثر الجمالي في الأشياء " قد ينصب على جمال الشيء في ذاته ، فيكون موضوعياً ، وقد ينصب على الشعور الممتد فيُعَدُّ ذاتياً " (٢).

والجمال عند (**كانط ١٧٢٤م – ١٨٠٤م**) علم مستقل بذاته يطلق عليه **الإستاطيقا** ويدور حول الانسجام والاكتمال الذي يتصف بالحق وينشد الخير، وإليه يرجع الفضل في فصله عن المجالات الفلسفية والمعرفة النظرية ، ويكمن الجمال في والتناسق والتآلف بين جميع عناصر الطبيعة من حولنا ، وأثرها على المشاعر النفسية والأحاسيس الوجدانية ؛ " لأننا عندما نكون إزاء الشيء الجميل نقوم بحكم منعكس يعتمد على ما يجري بين ملكاتنا الذاتية ،

---

(١) موسوعة الفلسفة ، عبد الرحمن بدوي ، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(٢) الأسس الجمالية في النقد العربي ، د : عز الدين إسماعيل ، ص : ٦٦

والجمال الذي ندركه في الموضوع الخارجي مصدره عملية التأليف والتوفيق، أو اللعب الذي يتم بين الخيال وبين الذهن ، وهذه العملية هي مصدر الشعور باللذة الجمالية أو الرضا المصاحب " [١] للخير والخلق ، والذوق عند **كانط** هو الملكة النقدية والموهبة النفسية التي بها نحكم على الأشياء بالجمال ، ولن يكون الشيء جميلاً ما لم يحرك مشاعرنا بأثره النفسي وتأثيره الوجداني ، فإن لم تلق النفس إزاءه استحساناً ، فلن يكون جميلاً ، بشرط أن يكون حكمنا على الأعمال الفنية والنتاجات الإبداعية نابعاً من الذوق العام أو الحس المشترك بين الناس ، إذ لا ينحصر الجمال في شعور فردي واحد ؛ وإنما يكون مبدأ الاستحسان طابعاً كلياً وليس انطباعاً شخصياً " إذ لا يكفي أن يروق لي شيء حتى أصفه بالجمال ، فوصف شيء معين بالجمال يستلزم أن يكون كذلك بالنسبة للغير أيضاً ، ذلك أن الكل مطالبون بالموافقة عليه " [٢]، والشعور بالجمال والكمال نحوه ، فهو يثير مشاعر مماثلة بين الناس ، تنتقل من اللذة الحسية إلى المعاني الروحية والقيم الأخلاقية ، التي تحمل معنى الخير والعدل .

والجمال عند الفيلسوف الألماني (**شوبنهاور ١٧٨٨م – ١٨٦٠م**) يلوح في قوى الطبيعة وسائر المدركات الحسية كالموسيقى والفن والعمارة والنحت ، وهي أقل درجات الجمال ؛ لأنه لا يتعدى فيها الانسجام الشكلي والتناغم الهندسي ، أما في فن الشعر فهو أسمى وأرقى ؛ لأن الشعر فن أدبي يعتمد على التشكيل اللغوي والتصوير الأدبي ، وهو مرآة المشاعر الإنسانية ، والأحاسيس الوجدانية التي يمثل فيها الشاعر دوراً متميزاً بملكته الإبداعية

---

(١) فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها ، د أميرة حلمي مطر ، ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١١٥ .

التي تعكس الانفعالات التي تعتور مشاعر الإنسانية وما يدور في خوالجها من لذة روحية أو سخينة نفسية " ولأنه يعبر عن المثل بواسطة الخيال الذي يجسد التصورات بواسطة الكلمات " [١] ، وقدرته على التمثيل الأسمى والوصف الأرقى للمعاني الباطنية والقيم المثالية .

والجمال عند الفيلسوف الإيطالي **(كروتشه ١٨٦٦ م – ١٩٥٢م)** يشمل علم التعبير بالكلمات والرسم بالعبارات ، والتصوير الأمثل بالمفردات للمشاعر الإنسانية والأحاسيس الوجدانية ، فهو ينزع في الجمال منزعاً أدبياً ، يبحث فيه وسائل التعبير الأدبي ومعايير الأسلوب الفني ، وجعل الغاية الكبرى منه هي الحكم بالجمال إذا وافق في مقصده الهدف الذي يرمي إليه ، والقفز إلى عالم الروح وتكوين الصور الذهنية للمعاني الباطنية حتى نرى المعاني المصورة ببصائرنا في هيئة حسية وصورة تشخيصية ، فإذا هي ماثلة حية ومشاهدة مرئية.

واهتمام الفلسفة الغربية الحديثة في الجمالية بالشكل دون المضمون ساعد في تكوين نظرية نقدية حديثة هي "**الفن للفن** " وتنحية المضامين النفعية من وراء النتاج الفني والعمل الإبداعي ؛ لأن الشكل في مفهومهم : له " دوره في جذب الانتباه ومنح المُستقبِل له شعوراً معيناً وإحساساً خاصاً به انطلاقاً من بنائه وتقسيماته " [٢] ، وانحصرت الجمالية عند المدرسة النقدية الغربية في الشكل اللغوي للأدب " وكل ما يتعلق بفضاء اللغة وكينونتها بوصفها نسيجاً لفظياً تتفاعل في داخله العلاقات السيميائية والتداخلات الرمزية في

---

(١) فلسفة الجمال أعلامها ومذاهبها ، د أميرة حلمي مطر ص ١٥٤

(٢) مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة ، د : محمد سالم ولد الأمين ، مجلة عالم الفكر، ص ٨٩ عام ٢٠٠٠م.

نسق متميز" [١] ، ونمط أسلوبي مرتب ، وإمعان المدرسة الغربية في الاهتمام بالشكل دون المضمون كان له بالغ الأثر في تكوين فكر المدارس النقدية الحديثة **كالشكلانية** الروسية التي ارتأت أن جمالية الأعمال الأدبية ، ننشدها في خصائصها الأسلوبية وهيئاتها الشكلية ، التي تهتم بدراسة الظواهر اللغوية ، فتعنى ببحث الرموز والعلامات والروابط والعلاقات السياقية التي تتكون منها الأبنية الأسلوبية في الدراسات الأدبية .

وقد أتت **المدرسة البنيوية** امتداداً للمدرسة **الشكلانية الروسية** في تعريف الجمالية ، وانتهجت سبيلها في تحليل النصوص الأدبية ومعرفة قيمتها الفنية ؛ لكنها انطلقت من داخل النصوص إلى خارجها ، فبدأت بتحليل الصور الجزئية للأنساق اللغوية ، ثم انطلقت إلى الصور الكلية للأبنية التعبيرية التي تمنح الأدب قيمة فنية وروعة جمالية ، ولا مناص من التفريق بين "الجمالية بوصفها مذهباً أدبياً ، وبين الجمالية بوصفها مصطلحاً فنياً ، فالأول يُستخدم للدلالة على مذهب في الأدب معين يستند إلى رؤى فلسفية "[٢] ، والثاني يبحث ما ينبغي أن تكون عليه النصوص الأدبية من نموذج متحقق أو متخيل، فيعالج منهجية تشكيلها ، ونسقية تكوينها ، ويتناول أسسها الفنية ومناهجها الأسلوبية ، حتى يقدم تفسيراً لرموزها السيميائية ودلالاتها التعبيرية ، ويمنح الناقد والمتذوق قدرة على إدراك مناحي الجمال الفني للعمل الإبداعي ، وتحديد الانطباع النقدي الذي يستمد الذوق منه روعته التعبيرية وقيمته الأدبية .

---

(١) جمالية الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، د صالح ملا عزيز ، ص ١٩ ، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا، الطبعة الأولى٢٠١٠م.

(٢) السابق ، ص ٢٣ .

وقد تعاقبت المدارس النقدية الغربية على مفهوم واحد للجمالية ، فحصروها في **الشكل دون المضمون** ، فيما يعرف بنظرية " **الفن للفن** " ما جعلهم ينشدونها في الأنساق والتراكيب الفنية ، والإيحاءات والدلالات التعبيرية ، للنصوص الأدبية دون النظر إلى مضامينها الدلالية ، ومعيار الجمال عندهم يكمن في حسن نظمها وروعة انسجامها ، فنظرتهم للجمال نظرة **أبيقورية** (١) ينزعون فيها نزعة حسية تحرك في النفس دفة اللذة دون الأخذ بمعيار أخلاقي ، فالجمال عندهم يتجلى في المحسوسات وحدها ولا شيء غيرها ، وهو سحرٌ متحررٌ من كل عمل أخلاقي أو أثر خيري .

()(١) نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقور الذي يقصر الجميل على الشهوات دون الآخذ بالأخلاقيات أو أعمال الخير .

المبحث الثالث

(الجمالية في فكرنا البلاغي وتراثنا النقدي) وفيه مطلبان :

يتعامل فكرنا البلاغي وتراثنا النقدي مع الأساليب البلاغية على أنها العذراء في حيائها ، والبتول في خدرها حتى ينجذب المرء إلى دلّها وحسنها، وكلما زاد جمالها زاد المرء بها تهيّما وامتلأ قلبه بها تَوَلّها ، والبلاغة كالمرأة الخجولة التي تؤثر الإشارة عن العبارة بعيونها الناعسة وهمساتها الحالمة ، وتبلغ بصوتها الهادئ ونغمها الناعم وجدان المتلقي في خفت وهدوء ، بأوب همسها ، وصدى أنغامها ، ووشوشة كلامها في أذن المتلقي ، هكذا بلاغة الكلمات والجمل والعبارات تهمس في أذن السامع بدويّ الكلمات ، وصريف الجمل والعبارات ، منبهة إلى هزيز حروفها ، وجرس أصواتها ، وإيقاع مفرداتها ، وتناغم جملها ، وجمال تصويرها ، والجمالية البلاغية لها عبقرية فنية وروعة إبداعية في بلوغ مراميها بالقليل من الألفاظ ، فتؤثر الإشارة الجاذبة والرمزية الفاتنة عن الاستطراد اللفظي والاطناب الكلامي ، عندئذ يجني الناقد ثمارها ، ويفتض أبكارها ، ويستخرج درها ، ويعرف ما تجيش به صدورها .

والجمالية التي نعنيها في هذا البحث هي تلك التي عملت المدرسة النقدية القديمة على توفيرها ، ووضعت المعايير الفنية ، والمقاييس البلاغية التي تنظم أطرها وتستخرج درّها ، حتى تلوح النصوص الأدبية في صورة قشيبة، وتخلع عليها مسوحاً من الجلال رتيبة ، وتبدو جمالية المدرسة النقدية والبلاغة العربية في تنسيق هذه المعايير وتنظيمها ، وحسن تبويبها ، فشملت علوم البلاغة الثلاثة **المعاني** ، **والبيان** ، **والبديع** ، وهي تتداخل فيما بينها ،

وتتقاطع حتى تتكامل في إطارها النظري ، ونطاقها التطبيقي على النص الأدبي والنتاج الفني .

وتعمل الجمالية في النقد الأدبي وعلوم البلاغة الثلاثة على تنمية المهارات الإبداعية ، وتقديم الأدوات الإجرائية التي تضمن سلامة النص من العيوب حتي لا تخل بفصاحة الكلمة المفردة ، ثم تنطلق منها إلى الجملة ، ثم لمجموع البنيات اللغوية والتراكيب الفنية ، دون أن تهمل جانباً نحوياً ، أو اتجاهاً أسلوبياً ، أو معلماً وجدانياً إلا عملت على تنظيمه وحسن تبويبه ، وما الضوابط والمعايير التي قاموا بتأطيرها في كتب البلاغة والنقد قديماً إلا وصفاً صريحاً **للأسس الجمالية في البلاغة العربية** ؛ لاعتمادها على الذوق الفني والتحليل الأدبي ، كقضية اللفظ والمعنى ، والصدق والكذب ، والطبع والصنعة ، والسرقات الأدبية ، وعمود الشعر ، والمفاضلة والموازنة ، والخيال الفني ، وقضية البديع ، والوحدة والكثرة في القصيدة ، هذه القضايا تكشف للمتلقي **مناهج التفكير البلاغي والفكر الجمالي** المتقدم لدي أعلامنا الأوائل ، وتبرز تعدد مساراته وعمق اتجاهاته ، وهذا التفكير يتلاقى في كثير من مرجعياته المعرفية وآلياته الإجرائية مع كثير من قضايا النقد الحديث ، كقضية الأجناس الأدبية ، والمفاضلة بين الشعر والنثر ، وقضية وحدة العمل الأدبي ، والشكل والمضمون ، وهي إضافة لما سماه القدماء اللفظ والمعنى ؛ لكنها تأثرت بالوجهة الفلسفية التي انتهجتها المذاهب الأدبية ، وتبعت فيها المناهج الغربية ، وقضية تفسير الأدب وتأويل النص ، وموسيقى الشعر ، ونقد النقد ، والشكلانية ، والبنيوية ، والأسلوبية ، والسيميائية إلى غير ذلك من القضايا النقدية التي ساهمت في وضع الأطر الفنية للنظرية الجمالية في النقد الأدبي الحديث ، وعملت على تقديم المنهج الأوفى والأسلوب الأعلى

لتأويل النص وفك شفراته ، مما يؤكد أن نقدنا القديم قد ساهم في وضع ملامح النظرية الجمالية الحديثة بمفهومها الغربي ، فمَثَّل مبادئها تمثيلاً صادقاً ، إذ كانت مهمته رصد التفاعل النفسي والتذوق الوجداني ، وتحديد الأسباب والمرجعيات التي تجعل النتاج الفني جميلاً أو قبيحاً ، وتسبغ عليه قيماً تعبيرية وسياقات أسلوبية تجعله أكثر قبولاً وتمنحه روعة وسروراً ، والبحث عن المعايير والثوابت التي يحوز بها أسباب الجمال أو القبح ، والوقوف على المضامين الجوهرية والعناصر الضرورية لتأدية صنوف من روعة التعبير وجمال التصوير ، وتقديم التفسير لأسبابها والتأويل لعلاتها ، وقدرته على التمييز بين الجميل والأجمل ، والحسن والأحسن ، واستيفاء أوصاف الكلام حتى تحظى بالحلاوة ، وتحوز من الكلام الروعة والطلاوة .

المطلب الأول: (البلاغة العربية والغاية الجمالية)

الجمالية من المفاهيم النقدية والبلاغية التي لها غاية فنية ومهمة ذوقية في نقد النصوص الأدبية ، فهي الغائية الأولى لموروثنا البلاغي والنقدي ، وهي ابنة النسق الفني والتركيب الدلالي المتمايز الذي عملت البلاغة العربية ــ من لدن نشأتها ــ على تأطير قواعده وسن قوانينه ، وبحث النتاج الفني في ضوء معاييره ، فحفلت بتناسق اللغة في جملها ، وتعاضد الشكل مع مضمونها ، واتساق الجمل في تراكيبها ، وطرق أداء المعاني وتصويرها ، ومعرفة وجوه تحسينها وتجميلها ، وقد تناول نقادنا الأوائل مصطلح الجمالية في مصطلحاتهم النقدية والبلاغية بمسميات مختلفة ودلالات متنوعة ، فوضعوا العديد من المفاهيم والمبادئ التي يمكن أن تكون أساساً للنظرية الجمالية العربية بدءاً من التشكيل اللغوي والبلاغي للنص ، واختلاف خصائص التراكيب ودلالاتها ، ثم التشكيل الجمالي للمعاني بصور مختلفة

كالصورة التشبيهية ، والاستعارية ، والمجازية ، وانتهاءً بوجوه تحسين الكلام ، نأخذ منها على سبيل المثال **جمالية الكلمة** وعذوبتها " فقد عالجوها ضمن قضايا بلاغية ونقدية مختلفة من غير أن يذكروا المصطلح صراحة ، وإنما حاموا حول أشكاله حينما يتحدثون عن استيفاء الشروط اللازمة في النص الشعري ، وما كان حديثهم عن شروط الفصاحة ومبادئ عمود الشعر ووصف الشعر بالصنعة وضرورة التزيين وأسس عذوبة اللفظ إلا تجلياً صريحاً لتأسيس الضوابط الجمالية في النقد العربي "[1]، والمتأمل في مصطلح **الفصاحة** في كتب البلاغة قديماً يجد البلاغيين يحرصون كل الحرص على تطبيق ضوابط فنية يتحقق في توافرها **مصطلح الجمالية** ؛ لأن الفصاحة تحرص على تجميل الكلام العربي وإخراجه في صورة تعبيرية تورث الكلام حسناً وتمنحه جمالاً ودلاً ، **والجمال اللغوي** وصف حسي وآخر معنوي يغشى اللغة كما يغشى كل موجودات هذا العالم ، ومهمة البلاغيين والنقاد هو وضع المعايير الفنية والمقاييس النقدية التي تؤطر لسلامة الكلام من العيوب ، وإخراجه في ثوب قشيب يلفت الأنظار إلى نظمه البديع وبنائه الرتيب ، وصياغة تلامس بحسن تركيبها وجودة أسلوبها وتناسق سياقها شغاف القلوب ، فتصادف محلها من الآذان ، وتأخذ بتلابيب النفوس والوجدان ، وكلما كانت أجزاء الكلام منتظمة البناء منسجمة الأجزاء كان للمبدع في لغته ما يشاء من التأثير وقوة التعبير.

---

(١) جمالية الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، د صالح ملا عزيز ، ص ١٥ ، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا، الطبعة الأولى٢٠١٠ م .

ولكن أين تكمن **الجمالية اللغوية في البلاغة العربية** هل في الكلام الخصيب ؟ والسياق الرتيب ؟ والسلامة من العيوب وحدها ؟ أم في أثرها النفسي ؟ وانطباعها الوجداني الذي يفجأ المتلقي بحس إيقاعه وروعة إبداعه ؟ أم فيهما معاً ؟ وما هي الخصائص التي يجب تضافرها في اللغة حتي تصادف البلاغة محلها من الجمالية ؟ وهل للبلاغة مقاييس محددة ومعايير منظمة حتى تجد موقعها من الجمالية ؟ وما هي منازل الاستيعاب الجمالي في النتاج الأدبي ؟ هل تكمن الجمالية في المدركات الحسية ؟ أم في المعاني العقلية والخلجات النفسية ؟ وهل تختص بعلم واحد من علوم البلاغة الثلاثة دون غيره ؟ أم بهم جميعاً ؟ تلك أسئلة يحاول البحث الرد عليها.

المطلب الثاني : (فاعلية النظرية الجمالية في البلاغة العربية)

النظرية الجمالية في البلاغة العربية تحتاج إلى ناقدٍ حاذقٍ متسلحٍ بذخيرة معرفية وأدوات إجرائية ، قادر على تحليل الأعمال الأدبية ونقدها ، وفك شفراتها وتفسير رموزها ، وحسن تأويلها ، حتى يصدر حكماً نقدياً متوازناً ، ويقدم تفسيراً فنياً متوائماً مع مقتضيات الحال ومتطلبات المقام ، فيبرز المعاني الخفية لفحوى الألفاظ الفنية ، ويحدد أغراضها الخطابية ، وتلوح فاعلية البلاغة العربية في منح الناقد المعايير التي يتزود بها في تطبيق آليات التذوق الجمالي عند مواجهة النص الإبداعي ، حتى يتمكن من عرفان فروقه الفنية لأبنيته الكلامية ، ويقف على سياقاته البليغة وصوره البديعة التي تفضي إلى التكثيف الدلالي والتصوير الخيالي والإدراك الجمالي.

فالجمالية العربية تشكل طرازاً من الانسجام والألفة بين الخطاب والمخاطب ، واستخدام المبدع لملكته التأثيرية التي تعكس حالته الشعورية ، وعدم الأخذ باللغة المعجمية للنص سوى الانطلاق منها خلف أسوار الدلالة

الجمالية أو ما يعرف بالإحالة ، فيغلف المعنى بغلالة رقيقة من الغموض ، حتى يُحفِّز مشاعر المتلقي الوجدانية ، ويلهب ملكته المعرفية وخبرته الذوقية لفك رموزها وهتك حجابها ، وتأويل دلالاتها ، وتفسير جمالها ، ويتجلى ذلك في خصائص التركيب والصور البيانية ، التي تتعدد معها التأويلات ، وتتنوع فيها التفسيرات دون أن تمعن في غموضها ، ولا تبعد في تفسيرها عن الأعراف النقدية والمعايير الأدبية ، فتستحيل أحاجي عمياء ، وألغازاً صماء ، فالجمالية حقلها خصيب ومضمارها رحيب ، ومن صورها : الرمز ، والإيماء ، والإشارة ، والإيحاء ، والاستعارات ، والتمثيلات ، والكنايات التي تحتاج إلى فكرٍ حادٍ ، ونظرٍ وقّاد ، يشعر معه المتلقي بلذة الحصول على المعنى بعد كدِّ الذهن وإعمال الفكر ، وروعة التخييل وجدّة التصوير ، وليست الجمالية في البلاغة العربية تلك المعاني القريبة المبتذلة التي يسهل فهما ويشترك الناس في إدراكها ، وإنما المعاني العميقة التي يدركها الخاصة ولا يبلغها العامة ، وتتوارى خلف الدلالة الخفية التي يكتنفها الترميز، والتكثيف ، والتخييل ، ويحتاج إنجازها وهتك أغلالها إلى متلقٍ حصيفٍ قادرٍ على مجاوزة المعاني الظاهرة إلى الدلالات الخفية الباطنة التي تحتاج قدراً كبيراً من التفسير ، وتتعدد معها وجوه القراءة والتأويل ، كما تحتاج إلى متلق حصيف يمتلك فيضاً زاخراً من الأدوات المعرفية والوسائل الإجرائية التي تعينه على تقليب النص على وجوه مختلفة من التطبيق والتحليل .

ولا تقتصر النظرية الجمالية في البلاغة العربية علي الألفاظ وحدها ، ولا المعاني التي تأتي تابعة لها ، وإنما فيهما معاً ؛ لأن " اللفظ جسمٌ ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك ،

من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمـــرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينتقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى؛ لأنا لا نجد روحاً في غير جسم البتة " [١] .

وتبدو فاعلية النظرية الجمالية للبلاغة العربية في الوظيفة التأثيرية التي تؤديها عند تأويل النصوص الأدبية وتفسير صياغتها اللغوية بدءاً من تحليـــل مبانيها ، ومعرفة أسرارها الذي تجري في آصرة معانيها ، والتناسق التـــام بين ألفاظها ودلالاتها ، وانتظامها في تراكيبها، فهي "لا تنكفئ علـــى الشـــكل لتتعرف إلى عناصره الخارجية المتعلقة به فحسب، بل تسعى إلـــى إحـــداث التناغم الجم الي الحقيقي بين الشكل والمضمون...فالألفاظ والتراكيب والصور والإيقاع ليست مجرد أشكال صوتية أو صور حسية ، وإنما هي أشكال جمالية تختزن لغزو الروح الجمالية الأصيلة التي يتـــذوقها الـــوعي الفـــردي بعـــد معايشتها لإصدار حكم القيمة الجمالية"[٢] ومحاولـــة الفصـــل بـــين الشـــكل والمضمون دعوة إلى موت النتاج الأدبي وفقد قيمته الفنية وغايته الإبداعية.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الأول ، ص ١٢٤ دار الجيل ، بيروت ، لبنان ١٩٨١م .

(٢) التقابل الجمالي في النص القرآني (دراسة جمالية فكرية أسلوبية) د حسين جمعة ، ص ٧٠ ، ٧١ ، دار النمير للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشـــق ، ســـوريا ، الطبعـــة الأولـــى ٢٠٠٥م .

المبحث الرابع

(بواكير الفكر الجمالي في موروثنا النقدي والبلاغي) وفيه مطلبان :

أدرك كثير من البلاغيين والنقاد الظواهر النصية والمعايير الجمالية التي توصلت إليها المناهج النقدية والبلاغية الحداثيـــة ، بعـــد ترجمتهـــا وشـــاع استخدامها في الدراسات الأكاديمية للجامعات العربية ، فاحتفوا بالمصطلحات الحديثة ، ونادوا بها بديلاً عن مثيلاتها في المناهج النقدية والبلاغية بتعِلّة أنها لم تعُد تُلبي حاجة الناقد وقصورها عن مواكبة روح التطور ؛ ولأن المحدثات النقدية هي التي توائم متطلبات المرحلة الآنية والحداثة العصرية ، ولم يَـــدُر في خلد هؤلاء أن ينفضوا الغبار عن موروثنا النقدي والبلاغي حتى ينهلوا من غدرانه التي لا تغيض، وبحاره التي لا تُنْزِفُ ، ونوائله التي لا تضن ، فهي تسبق في أصولها الراسخة ، وفروعها الباسقة ، وأنوارها الزاهرة المنـــاهج النقدية الحديثة ، فالبلاغة العربية وقفت على القيمة الجمالية لقصائد الشـــعر، ونصوص النثر ، وأساليب القرآن وبيانه ، وطرقت أبواب المقاييس الأسلوبية التي انتهت إليها المدارس النصية والمذاهب الشكلانية الحديثة ، وعرفت صيغ تشكيل الأبنية الداخلية والخارجية للنصوص اللغوية ، وما ذكره الأوائل فـــي دراستهم للمعايير الذوقية ووظيفتها الإبلاغية لعلوم البلاغة الـــثلاث **المعـــاني والبيان والبديع** ، يؤكد سبق نقدنا القديم إلى عرفان المعايير الجمالية للأساليب الأدبية وغايتها التأثيرية ، ودورها في تشكيل الوعي الفني والتكوين الجمالي في فكر المتلقي وتأثيرها النفسي وتمثيلها الشعوري .

يتراءى ذلك في حديثهم عن الفصاحة والبلاغة ، واللفظ والمعنى ، والخصائص اللغوية التي يطابق بها الكلام مقتضيات الحال ومتطلبات السياق والمقام ، والبنى التحويلية التي تعتمد عليها أساليب القصر ، وصور العدول في متعلقات الفعل ، والتحولات الأسلوبية التي تعتمد عليها جمالية الذكر والحذف ، ورصد التغييرات الطارئة على الجمل في الفصل والوصل ، والإيجاز ، والإطناب ، والمساواة ، ومراتب الوصف التشبيهي ، ومراحل بناء التصوير الاستعاري ، وأطوار تكوين المعنى الكنائي والتعبير المجازي ، ورصد الظواهر البديعية وفاعليتها في إنتاج الدلالة ، ومزج الإيقاع بالتوازي، والانسجام بالتناسب ، والتصريع بالتنغيم ، وتقسيم فنون البديع وأثرها في تلوين الخطاب وتحسين الكلام ، إلى غير ذلك من الأساليب التعبيرية والصور اللغوية التي عمل البلاغيون والنقاد على وضع المعايير الجمالية التي تؤطر علاقاتها ، وتنظم تراكيبها ، وتحدد نظامها ، وتسهم في إنتاج معناها ، وتعمل على كشف الظواهر التي تستبين مغزاها ، ما يؤكد سبقهم إلى معرفة تحولات البنية البلاغية من البنى السطحية إلى البنى العميقة التي يتولد معها التشكيل الجمالي للفنون الأدبية والأساليب القرآنية .

لقد سبقت البلاغة العربية المدرسة الجمالية الغربية إلى دراسة بنية النصوص الأدبية ، فتناولت ترابط المفردات في جملها ، وتناغم جرسها ، وحسن إيقاعها ، ومخارج حروفها وصفاتها ، وتنافر أصواتها ومناسبتها ، وإعلالها وإبدالها ، وزيادتها وحذفها ، وسلامة بنائها وروعة نظمها ، وتناولوا الجمل في تركيبها وحسن سبكها ، وملاءمة أجزائها في سياقها .

لقد حرص البلاغيون والنقاد قديماً على رصد القيمة الجمالية للنصوص الأدبية وتوزيع العلاقة بين المبدع والمتلقي والنص ، لمعرفة الترابط اللفظي

والتماسك الدلالي في العناصر الأسلوبية ، وهذه الظواهر قد أتت في " بعضها أو جلها في التراث النقدي والبلاغي عند العرب أشتاتاً وفرادى ؛ لانصرافهم إلى متابعة الشاهد والمثال والجملة ، ولعل في التراث البديعي من الثراء والخصوبة من هذه الوجهة ما يحفز الجادين من الباحثين إلى استفراغ وسعهم في إعادة تشكيل هذا العلم من منظور نصي " (١).

وجمالية البلاغة العربية في فكرنا البلاغي وموروثنا النقدي تنبع من قدرتها الفنية ، وروعتها البيانية على جذب الانتباه إلى الجزالة الأسلوبية والفصاحة اللغوية والخصائص التركيبية للأساليب الأدبية ، التي تفتح مغاليق النفوس بجودة سبكها ، ورونق إيقاعها ، وتناسق تراكيبها ، والقرآن هو المثال الأعلى الذي أطر البلاغيون والنقاد عليه معاييرهم البلاغية ، وسنوا مقاييسهم النقدية ، وقد استقوا روافدها من روعة بنائه وحسن نظامه ، واتساق مبانيه ، وجمال معانيه ، فقسموا جماله إلى **جمال شكلي** : يلفت انتباه المتلقي من الوهلة الأولى إلى عذوبة ألفاظه ، وتناغم إيقاعه ، وتناسق جمله ، **وجمال تعبيري** : يلوح في انتظام مبانيه وروعة معانيه ، وقد بزغت بواكير هذا الجمال وانبلجت في كتابات السابقين ، كالباقلاني ، وعبد القاهر الجرجاني، وأبي عبيدة وغيرهم من رواد الدرس اللغوي والنحوي والنقدي والبلاغي ، ممن يهتمون بالدرس الجمالي في البيان القرآني، وما نظرية النظم إلا دراسة جمالية في التراكيب القرآنية والنصوص الأدبية ، فَطُرقُ بنائهِ ومسالك نظامهِ هي الركائز الفنية والأطر الجمالية التي ينطلق منها الدرس الجمالي في البلاغة العربية.

---

(١) نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية ، د : سعد مصلوح ، ص ١٥٧ ، مجلة فصول ، القاهرة ، المجلد العاشر ، عدد ١ــ٢ ، ١٩٩١م .

المطلب الأول : (الآراء النقدية والمعايير الفنية للجمالية عند البلاغيين والنقاد)

يُعدُّ **الجاحظ (١٥٩ه ــ ٢٥٥هـ)** أول الأدباء العرب وقوفاً على **مصطلح الجمالية** بشقيها **الحسي والمعنوي** ، فسبق من جاراه ، وعلا من ساماه في النظريات النقدية الحديثة التي تناولت **علم الجمال** ووضعت معاييره، وأطّرت مقاييسه ، يتجلى ذلك في حديثه عن تناسق الهيئات ، وانسجام الأشكال والبنيات على نحو يبرز ائتلافها ، وتناغم جمالها ، وتضاعف حسنها " وقد سبق **الجاحظ** بقرون مدارس علم الجمال الحديثة عندما أفاد بأن الجمال موضوعي يُدرك عن طريق الحواس ، وذلك من خلال حديثه عن تناسق الأشكال، وأعجوبة الخلائق والزخارف المزينة ، والأغاريد الحسنة بل زاد على الغربيين جمالاً آخر، وهو الجمال المعنوي الذي يتملاه العقل الباطن "[١].

وإدراك **الجمالية** عنده يحتاج إلى بصيرة متوقدة ، تغوص عمّا خَفِيَ من مكنون الحسن في الأشياء التي تقع في مرمى الإدراك الحسي أو المعنوي ــ لاسيما ــ الأمور الوهمية ، والصفات المعنوية التي لا يبلغ مداها إلا من صفت قريحته ، وتوقدت فطنته ، فلا تنفث في مُبهم إلا استبانت منه أغبط بادٍ، ولا بقرت عن مستور معنى إلا دلت على أحسن هاد .

وقد وضع **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٩ هـ ــ ٢٥٥ هـ)** للجمالية معايير فنية تجمع شتاتها وتستبين ملامحها وقسماتها في قوله : " إنّ أمر الحسن أدقُّ وأرقُّ من أن يدركه كلُّ من أبصره ، وكذلك الأمور الوهميّة، لا يُقضى عليها بشهادة إبصار الأعين ..... يحكم فيها لكلٍّ بصير العين

---

(١) جمالية الإشارة النفسية في الخطاب القرآني ، د صالح ملا عزيز ، ص١٣ .

يكون فيها شاهداً وبصيراً للقلب ، ومؤدياً إلى العقل ، ثم يقع الحكم من العقل عليها ، وأنا مبين لك الحسن: هو التمام والاعتدال ، ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة ، وكدقة الجسم ، أو عظم الجارحة من الجوارح ، أو سعة العين أو الفم ، مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخَلق ؛ فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن ، وإنْ عدت زيادة في الجسم.....وكلُّ شيءٍ خرج عن الحدِّ في خُلُق ، حتّى في الدين والحكمة الذين هما أفضل الأمور فهو قبيحٌ مذموم"(١).

واعتدالُ الخَلْق ، وتناسقُ الشكلِ أحد مناحي الجمالية ، وأهم معاييرها التي أحسنت الأسس البلاغية والرؤى النقدية تطبيقها في المعالجات الأسلوبية للنصوص الأدبية ، فهي عنده " وزن الشيء لا الكمية..... ووزن النفوس في أشبه أقسامها ، فوزن خلقة الإنسان اعتدال محاسنه ، وألاّ يفوّت شيء منها شيئاً ، كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفطس ، والأنف العظيم لصاحب العين الضيِّقة ، والذَّقن الناقص والرأس الضخم والوجه الفخم لصاحب البدن المدَّع النِّضو ، والظَّهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين، والظَّهر القصير لصاحب الفخذين الطويلتين ، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه ، ثم هذا أيضاً وزن الآنية وأصناف الفُرُش ، والوشي واللباس ،ووزن القنوات التي تجري فيها المياه ، وإنما نعني بالوزن الاستواء في الخرط والتركيب " (٢).

---

(١) رسائل الجاحظ ، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب القيان ، تحقيق عبد السرم هارون ، الجزء الثاني ، ص ١٦٢ ، ١٦٣، مكتبة الخانجي ، القاهرة .بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

ـ **وفي عيار الشعر لابن طباطبا (٣٢٢ هـ ـ ٩٣٤ م)** عددٌ من المعايير النقدية والمقاييس الفنية التي يمكن اعتبارها مهاداً طبيعيا نحو نظرية جمالية في النقد العربي ، فقد اهتم بتفسير علّات الجمال والقبح لقواعد الشعر وفنون القول ، ووضع المقاييس الجمالية التي تؤطر لمنهجية فنية تعمل على توشية النتاجات الإبداعية وتطريزها بصنوف من الجمال رتيبة ، تبعث في النفس لذة روحية ومتعة فكرية ، حيث ربط فيها جمال الشعر، وروعته بالتأثير النفسي ، والانطباع الوجداني الذي يبقيه في شعور المتلقي .

فما يتهافت عليه ذوق المتلقي : جميل حسن ، وما يمُجّهُ سمعه ويستكرهه وينفر منه : قبيح مستهجن ، والمدركات الحسية عنده هي المرجعية الأولى التي يستطيع بها إدراك اللذة الجمالية قائلاً : " إن كل حاسة من حواس البدن إنما تتقبل ما يتصل بها مما طبعت له إذا كان وروده عليها ورود لطيفاً باعتدال لا جور فيه، وبموافقة لا مضادة معها، فالعين تألف المرأى الحسن، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه، والأنف يقبل المشم الطيب، ويتأذى بالمنتن الخبيث، والفم يلتذ بالمذاق الحلو، ويمج البشع المر، والأذن تتشوف للصوت الخفيض الساكن وتتأذى بالجهير الهائل، واليد تنعم بالملمس اللين الناعم، وتتأذى بالخشن المؤذي " [(١)] .

وكما أن الحواس تستشعر الجماليات الحسية والصور المادية ، تأنس بها وتتفاعل مع جزئياتها ؛ فإن النفس تهوى الصور المعنوية وتصبو إلى المعاني النفسية التي تحملها الألفاظ والتراكيب ، ويوشيها التناغم والإيقاع الرتيب ، وتنفر من المستوحش من القول " فإذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوماً ،

---

(١) عيار الشعر : لمحمد أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق : عباس عبد الساتر ، ص ١٩، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م .

مصفى من كدر العيّ، مقوماً من أود الخطأ واللحن ، سالماً من جور التأليف، موزوناً بميزان الصواب لفظاً ومعنى وتركيباً اتسعت طرقه ، ولطفت موالجه، فقبله الفهم وارتاح له ، وأنس به ، وإذا ورد عليه على ضدِّ هذه الصفة ، وكان باطلاً محالاً مجهولاً ، انسدت طرقه ونفاه واستوحش عند حسّه به ، وصدئ له ، وتأذى به ، كتأذي سائر الحواس بما يخالفها " [١] .

ولم يغفل **ابن طباطبا** الإدراك العقلي والانطباع المعنوي في تحقيق المعايير الجمالية للأساليب العربية ، فما تلحظه البصيرة أقوى لديه في توفير الجمال الفني ، وأرسخ مما يحققه الجمال البصري ، وهو ينزع في هذا الرأي منزعاً روحياً سبق إليه كثيراً من فلاسفة المسلمين كأبي حامد الغزالي، وابن مسكويه، وابن رشد، والفارابي، والكندي، وابن سينا وغيرهم ، وقد وضع في كتابه **عيار الشعر** عدداً من المقاييس الأسلوبية والمعايير الفنية التي يتم بها معالجة النصوص الأدبية ، ويتحقق بها جمال الفنون القولية ، فاهتم كغيره من البلاغيين والنقاد بأحوال اللفظ العربي التي يطابق بها الكلام مقتضى الحال ، وما يعتري المعاني من الاتباع والابتداع ، والتناسب والتنافر ، والتكافؤ والتطابق ، والصدق والكذب ، والوعورة والسهولة ، والمقاطع والمطالع ، وحسن الانتقال بين الأغراض ، ووضع المقاييس التي تخلع على الأساليب الفنية مسحة جمالية ، فوازن بين الطبع والتكلف ، والجزالة والسهولة ، والإيجاز والإطناب والمساواة ، والفصل والوصل ، والذكر والحذف ، وأساليب القصر، وبحث إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة تكسب الكلام حسناً وتمنحه جمالاً وفضلاً ، كالتشبيه والاستعارة والكناية التي تحملها الأساليب الأدبية ، وتناول الوجوه اللفظية والمعنوية التي يتم بها طرق تحسين الكلام ،

---

(١) عيار الشعر : لمحمد أحمد بن طباطبا العلوي ، ص ١٩ .

ما يعني التماس **ابن طباطبا** وغيره من البلاغيين والنقاد أسباب الجمال وتحديد مقاييسها وتأطير معاييرها التي تمنح المتلقي قدرة فنية ونظرة موضوعية في إدراك ما في الكلام من حلاوة وطلاوة ، ومعرفة أسباب الحسن التي بها يرى الجميل جميلاً والقبيح قبيحاً ، ما يؤكد أن ابن طباطبا في ذوقه الفني " ناقد موضوعي يرى للجمال أسباباً يمكن التماسها ومعرفتها ، وللقبح أسباباً كذلك " (١).

ومن أسباب الجمالية في البلاغة العربية عند ابن طباطبا : إيتاء المعنى البارع في المعرض الحسن وبناء الألفاظ على مقدار المعاني ، وتناول التشبيهات البعيدة التي زادت قريحة قائليها فيها على عقولهم ، والشعر المحكم النسج " الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف ويسديه وينيره ، ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه " (٢) ؛ لأن الشاعر في مفهومه يشبه النساج الماهر والحائك البارع ، ومن **مقاييس الجمال** عنده : حسن التخلص إلى مقصود القصيد على وجه سهل وانتقال رتيب بين أجزاء الكلام حتى يشعر المتلقي بالالتئام وتناسق الكلام ، وملاءمة معاني الشعر لمبانيه والتئام ألفاظه لمغازيه ، وحسن المطالع وبراعة المقاطع وحسن الخاتمة ، والتعريض الذي ينوب عن التصريح ، وتشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة وحركة ، وتشبيه الشيء بالشيء معنى وصوتاً.

والجمالية عند الآمدي (ت٣٧١هـ) تؤدي مهمة فنية ، تكمن في تحقيق الشعر المتعة الإبداعية والغاية الإبلاغية ، مع حسن ديباجته وروعة

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د أحمد أحمد بدوي ، ص ٩٤، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة ١٩٩٦م .

(٢) عيار الشعر : لمحمد أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق : عباس عبد الساتر ، ص ٨ .

صياغته ، وإقبال النفوس عليه في انفعال وجداني وتأثير شعوري ، يلوح هذا في حديثه عن شعر البحتري بقوله : " إنما حسُن هذا الحسن ، وقبِلته النفوس؛ لأنه اعتمد أن يُخبر بالأمر على ما هو ، مع حسن عبارته ، وبراعة نسجه ، وجودة تلخيصه ، ومُتخير ألفاظه "[١] ، فمراعاة الحالة النفسية من أهم عناصر الجمالية التي تبعث البِشر والتفاؤل ، أو الشقاء والتشاؤم في نفس المتلقي فتوقظ نشاطها ، وتثير انفعالاتها لأمور توائم مقتضيات الحال ومتطلبات المقام ، دون أن يغفل جماليات الأسلوب ووظائفه الدلالية من انسجام لفظي وتناغم أسلوبي ، وإيقاع خطابي يورث الكلام حسنا ويمنحه قبولاً وأنساً .

والجمالية عند **الخطابي (ت ٣٨٨هـ)** تلوح في النسق الجميل ، والنظم البديع ، والمعنى المنسجم في سياقه اللغوي وطرازه التركيبي ، فيجمع في صفحته الفخامة والعذوبة ، والجزالة والمتانة ، وكان حواره عن الجمالية في معرض حديثه عن جمالية الألفاظ القرآنية ، من حسن اختيارها وروعة بنائها، وتناسق تركيبها " ووضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل على فضول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة "[٢]، والجمع بين جماليات اللفظ والمعنى على أكمل هيئة وأشرف صورة لا ننشده إلا في البياني القرآني ، " فإذا تأملت القرآن وجدت

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، تحقيق السيد أحمد صقر ، الجزء الثالث ، ص ١٨١ ، دار المعارف مصر ١٩٧٢م

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق محمد خلف الله أحمد ، دكتور محمد زغلول سلام ، ص ٢٩ الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦م.

هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ ، أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه ، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها ، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها " (١).

وجمالية الشعر عند القاضي الجرجاني(ت٣٩٢هـ) تبدو في الارتياح النفسي الذي يطرب الأسماع بحسن إيقاعه ويستثير الوجدان بتناسب أنغامه وتكافؤ أجزائه ، " ثم تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقَّدْ ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفُّكَ من الطرف إذا سمعته ، وتذكّر صَبوةً إن كانت لك تراها ممثّلةً لضميرك ، ومصوّرةً تلقاء ناظراك " (٢) فالنفس تألف ما يناسبها ، وتقبل على النغم الذي يحرك ما بداخلها ، ومما يسهم في الإدراك الجمالي الاستئناس النفسي والاقبال الروحي ، والتناسب بين السمات الشخصية والظروف البيئية التي تجمع بين المبدع والمتلقي ؛ ولذا كان شعر البحتري لديه أجمل وأبهى وأزين من غيره وأحلى ؛ " لأنه أقربُ بنا عهداً ، ونحن به أشدُّ أنساً ، وكلامه أليقُ بطباعنا، وأشبه بعاداتنا " (٣) .

وتكمن الجمالية عند أبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) في سيمياء النص ، وجودة السبك ، وحلاوة اللفظ وحسن الإيقاع ، وتناغم الجرس ،

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: ص ٢٧.

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد شعره ، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، الناشر مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، بدون تاريخ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٩ .

واتساق النظم ، فالنص " إذا كان لفظه غثاً ومعرضه رثاً ، كان مردوداً ولو احتوى على أجلّ معنى وأنبله وأرفعه وأفضله "(١) ، وننشدها في الوحدات الصوتية المتتالية من سيمياء التكرار ، الذي يمنح الكلام نغمة طربية وروعة إيقاعية ، تخلبُ الأسماع وتُتيّمُ القلوب والأفهام ، وهي تشبه التطريز الذي " يقع في أبيات متوالية من القصيدة وكلماتٌ متساويةٌ في الوزن ، فيكون فيها كالطراز في الثوب " (٢).

وذكر أبو هلال العسكري فرقاً بين الجمال والحسن ، هو أصدق التعريفات التي توافق النظرية الجمالية النقدية، فالجمالية عنده تكون في المعنويات كالأفعال والأخلاق ، ثم استعملت في الحسيَّات ، وأما الحسنُ فبؤرته الصور الحسية والجبلة الشكلية ، ثم جاوزها إلى الماهية المعنوية قائلاً: " إن الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان في شيء ألا ترى أنه يُقال لك في هذا الأمر جمال ، ولا يقال لك فيه حسن "(٣).

ـ **وعند ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ)** أخذت الجمالية تقترب من حقل الدراسة النقدية والبلاغية ، فتناولها في حديثه عن التخييل الشعري ، وجعل الوزن ، واللفظ ، والمعنى ، والانسجام ، وتناسب أجزاء النص ، وتناسقه أهم عناصر الوظيفة **الجمالية** في الخطاب الأدبي ، فالشعر كي يؤدي وظيفة جمالية ، وصياغة فنية مؤثرة في نفس المتلقي ، لا بد له من التخييل ،

---

(١) الصناعتين في الكتابة والشعر ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : علي البجاوي ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، ص ٦٧ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ١٩٨٦م .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٢٥.

(٣) الفروق في اللغة ، لأبي هلال العسكري ، ص ٢٥٧، لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ .

والتصوير ، والتناسب ، والتناسق حتى يحقق إيقاعاً منتظماً ، ونغماً جميلاً يجد صداه في وجدان السامع أو القارئ ؛ لأن النفس الإنسانية مجبولة على التخييل ، وهي أقرب إليه منه إلى التصديق ، تأنس به وتنفعل معه حتى ولو كان كاذباً ، إذا توافرت فيه الخصائص الأساسية للشعر ، والمُخيل عند **ابن سينا** : " هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط لأمور، أو تنقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار ، وبالجملة تنفعل له انفعالاً نفسانياً غير فكري ، سواء كان المقول مصدقاً به ، فإن كونه مصدقاً به غير كونه مخيلاً أو غير مُخيل ، فإنه قد يصدق بقول من الأقوال ولا ينفعل عنه ، فإن قيل مرةً أخرى أو على هيئة أخرى انفعلت النفس عنه طاعة للتخيل لا للتصديق ، فكثيراً ما يؤثر الانفعال ولا يُحدث تصديقاً ، وربما كان المتيقن كذبه مُخيلاً ، وإن كانت محاكاة الشيء لغيره تحرك النفس وهو كاذب ، فلا عجب أن تكون صفة الشيء على ما هو عليه تحرك النفس وهو صادق ، بل ذلك أوجب ؛ لكن الناس أطوع للتخييل منهم للتصديق ، وكثير منهم إذا سمع التصديقات استكرهها وهرب منها ، وللمحاكاة شيء من التعجيب ليس للصدق ؛ لأن الصدق المشهور كالمفروغ منه ، ولا طراءة له ، والصدق المجهول غير ملتفت إليه ، والقول الصادق إذا حُرّف عن العادة وألحق به شيء تستأنس به النفس فربما أفاد التصديق والتخييل معا ، وربما شغل التخييل عن الالتفات إلى التصديق والشعور به " [١] .

والجمالية عند الإمام **عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠ ــ ٤٧١ هـ)** لها أسبابها ، وتعلاتها ، وأصولها ، وعلى الناقد أن يكون خبيراً بدروبها ، عليماً

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء للقرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ص ٢٦ دار الكتب الشرقية تونس ١٩٦٦.

بقنواتها ، حائزاً الأسباب المؤدية إليها ، وقد انطلق في الجمالية من **نظرة موضوعية** قامت عليها المعايير البلاغية ، **وأخرى ذوقية** تحتاج إلى دُربَة فنية ، وملكة إبداعية ، وتَهيُؤات فطرية ، يهتدي الناقد بها إلى مواطن الجمال، ويرشد إلى أماكن الحسن والكمال ، وهو بذلك يجمع ما بين **الموضوعية والذوقية** ، فالجميل جميلٌ ؛ لأسباب ماثلة في النص الأدبي والنتاج الشعري ، ولتأثيره الوجداني وانفعاله الشعوري الذي يبرحه في روح المتلقي ، يلوح ذلك في نظرته إلى الجمال عند حديثه عن **إعجاز القرآن** قائلاً : " ووجدت المُعوّل عليه أن هاهنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم ، والتأليف التأليف ، والنسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل ، وتكثر المزيّة حتى يفوق الشيء نظيره ، والمجانس له درجات كثيرة ، وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد ، كذلك يفضل بعض الكلام بعضا ، ويتقدم منه الشيء الشيء ، ثم يزداد من فضله ذلك ، ويترقى منزلة فوق منزلة ، ويعلو مرقباً بعد مرقب ، ويستأنف له غاية بعد غاية ، حتى ينتهي إلى حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوي الأقدام في العجز " [(١)] .

والجمالية لدى الإمام عبد القاهر : أحد ثمرات البلاغة ، وأهم منجزاتها، كيف لا وجميع علومها تحتل منزلة كبرى في جوهر الدراسات الأدبية والنتاجات اللغوية ؛ لأنها معيار فهمها ودرة جمالها ! يتراءى ذلك في قوله عن بيان أثرها وخطورة أمرها : " ثم إنك لا ترى علماً هو أرْسَخ أصلاً،

---

(١) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : الشيخ محمود محمد شاكر ص ٣٤ ، ٣٥ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ٢٠٠٠م .

وأبْسَق فرعاً ، وأحلى جَنىً ، وأعذبَ وِرْداً ، وأكرمَ نتاجاً ، وأنْورَ سراجاً ، من علم البيان ، الذي لولاه لم تر لساناً يَحُوك الوَشْيَ ، ويصُوغُ الحَلي ، ويَلْفظُ الدُّر ، وينفثُ السّحْر، ويَقْرِي الشَّهْدَ ، ويُرِيكَ بدائعَ من الزَّهر، ويَجْنِيكَ الحُلوَ اليانعَ من الثمر، والذي لولا تَحَفِّيه بالعلوم ، وعنايَتُه بها ، وتصويره إيَّاها ؛ لبقيت كامنةً مستورةً ، ولَمَا اسْتَبَنْتَ لها يَدَ الدهر صُوره .... إلى فوائد لا يدركها الإحصاء ، ومحاسن لا يَحصُرها الاستقصاء " (١).

والذوق عنده هو الملكة الفطرية التي تسبغ على المتلقي قدرة فنية وروعة بيانية ، يميز بها إدراك **العناصر الجمالية** في النص الأدبي والنتاج الشعري ، وتقتضي انطلاق قريحة المتلقي من المرجعيات المعرفية ، والموهبة النقدية التي يستطيع بها تطبيق الآليات الإجرائية ؛ لتقييم العمل الفني والنتاج الإبداعي ، وتحديد الوجوه الجمالية أو المستهجنة فيه ، والإحالة على نماذج مماثلة مما يعرف من فنون القول ودروب الشعر ، فالملكة الذوقية والمرجعيات المعرفية هما المعيار الذي يرى به الجميل جميلاً والمستهجن مستهجناً ، وفي باب الذوق والمعرفة يقول الإمام عبد القاهر : " واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع ، ولا يجد لديه قبولاً ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تُحدثه نفسه بأن لما يومئ إليه من الحسن واللطف أصلاً ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارةً ، ويَعرَى منها أخرى، وحتى إذا عَجَّبْتَه عَجِب ، وإذا نَبَّهْتَه لموضع المزية انتبه " (٢).

---

(١) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : الشيخ محمود محمد شاكر ص ٥، ٦، مكتبة الخانجي ، القاهرة ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

فنظرة **الإمام عبد القاهر** للجمالية تنطلق من الوجهة الموضوعية والذوقية ، حين البحث عن وجوه الجمال وعلات الاستحسان في النصوص الأدبية ، فالأدوات المعرفية يقيس الناقد بها ألوان الجمال ، ويذكر أسباب الحسن والجلال ، والذائقة الفنية نلج بها إلى البنيات العميقة التي تتراءى خلف الوحدات اللغوية في الأساليب الفنية .

ونحا الإمام الغزالي (٤٥٠ هـ ـ ٥٠٥هـ) منحى سالفيه من علماء النقد والبلاغة في تأطير معنى الجمالية ، فأكد أن " القلب أشد إدراكاً من العين، وأنّ جمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للإبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة والمعاني اللطيفة التي تجلُّ عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ "[(١)] ؛ لأنها دليل التناغم الفكري وبرهان النظام المعنوي ، ورمزٌ لتضافر المشاعر الإنسانية والأحاسيس الوجدانية مع الخيال الذي يثري الوعي بالصور العقلية والمثيلات الوهمية ، ويفتح آفاقاً أرحب ، وغايات أبعد ، تينع بأزاهير الفكر وأطايب الذهن ، وتبدع الألحان في صياغة الصور العقلية ، والتراكيب التخييلية التي تحتاج إلى ماهر في التعبير حاذق في التصوير ، قادر على تطريز المعاني والأفكار، وتوشيتها بألوان تعبيرية وضروب تخييلية ، تمنح الصور الأدبية مجالات في الخيال أبعد وفضاءات أرحب ، يحكمها تناغم أسلوبي وانسجام تصويري ، يبدأ من جرس الأصوات في مفرداتها ، وإيقاع المفردات في جملها ، واتساق الجمل في تراكيبها .

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ، الجزء الرابع ، ص ٢٥٤، ٢٥٥ ، مطبعة الحلبي ١٣٤٦هـ . بتصرف يسير .

ـ **والجمال عند ابن الأثير أبي السعادات المبارك الشيباني الجزري (٥٤٤هـ ـ ٦٠٦هـ)** : " يقعُ في الصور والمعاني ، ومنه الحديث : " **إن الله تعالى جميلٌ يحبُ الجمال** " أي حَسَنُ الأفعال كَامِل الأوصاف " [١] ، ومنه قوله تعالى : " **فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ** "[٢] ، وقوله " **فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا** "[٣] ، فجمال الصور : **جمال مادي** يدرك بالحس ـ يجسده كل ما تعشقه العين ، وتطرب له الأذن ، ويتلذذ به الذوق ، ويهفو إليه الشمُّ ، وترتاح بِلَمْسِهِ اليدُ ـ **وجمال معنوي** : يدرك بالوعي ، والعقل ، والبصيرة من طيب الأقوال ، وحسن الخلال ، ويشترط فيهما التناسق والتنظيم ، وحسن التقسيم ، وخلوه من التعقيد والمعنى الذميم .

والتخييل بهذا المفهوم أحد ركائز التذوق **الجمالي** في الخطاب الشعري عند **ابن سينا**؛ لأنه يحقق المتعة الفنية واللذة الروحية ، وجماله الفني وأثره التعبيري ليس محصوراً في تناسق الكلمات ، وتموسق العبارت وحدها؛ وإنما في خرق الأفق الدلالي والانزياح الأسلوبي ، ودعوته إلى التأمل والتفكير، والتخييل والتصوير ، وفك رموز الدلالات الصوتية والتركيبية للنتاجات الشعرية؛ مما يؤكد وعيّ **ابن سينا** بالغاية **الجمالية** للمفاهيم النقدية والبلاغية التي تقوم عليها الأساليب الأدبية، فالخيال الرائي يفتق آفاق النص بصور جميلة ومعان بعيدة تحلق في سماوات الإبداع ، وتسهم في نشر الحسن والإمتاع .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر . لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى ، محمود محمد الطناحي. الجزء الأول ، ص ٢٩٩. المكتبة العلمية ، بيروت ، ١٣٩٩هـ ، ١٩٧٩م.

(٢) سورة الحجر : الآية ٨٥ .

(٣) سورة المعارج : الآية ٥

المطلب الثاني : (الجمال المادي والمعنوي في فكرنا البلاغي ووعينا النقدي)

عرف العربي القديم الجمال بشقيه **المادي والمعنوي** ؛ لأنه متعلق في وعيه بنفسه البشرية ، ومتغلغل في تكوينه بمشاعره الإنسانية ، والتفكير الجمالي في موروثهم الشعري جزءٌ من ظروفهم البيئية ومرآة حياتهم اليومية، وما ورد في أشعارهم من صور بيانية ونماذج تخييلية ، تأويل للرؤية الجمالية التي استمدوا روافدها من تفاعلهم النفسي مع جميع مظاهر الطبيعة حولهم ، فالجمال عندهم قائم على البنية العقلية التي تندرج في منظورها الشعري من معان متنوعة منها وصف المرأة بصور غزلية تبرز حسنها وجمالها ، والخيل في قوة متنها وحسن صورها ، وبريق السيوف في المعارك ولمعانها ، وخرير المياه في الجداول وجريانها ، وهديل الحمام ورجع أصواتها ، وصفات البعير وأشكالها ، وأطلال الديار واندثارها ، كما اهتم العربي قديماً **بالجمال المعنوي** فأعلى من شأن الجود والكرم ، والشجاعة والإقدام ، والفصاحة والبيان ، والحياء والأمانة ، والشوق واللوعة ، والحنين إلى المحبوب واللهفة ، وإغاثة الملهوف ونجدة المستجير إلى غير ذلك من الدلالات النفسية والمعاني الوجدانية .

والجمالية في موروثنا البلاغي والنقدي : ظاهرة أسلوبية تنتهج سبيل النصوص الأدبية ، وتعنى بتهذيب الألفاظ في مفرداتها ، وتناسب الكلمات في جملها ، واتساق العبارات في تركيبها ، ولها مهمة إبلاغية ووظيفة فنية تقوم على توشية الصور وتدبيجها ، وتوصيل الانفعالات وتكثيفها ، وتهيئة الذهن لفتق خيالاتها ، حتى يشعر المتلقي بجمالها الفني ، وإشباعها النفسي ، وهي "

لا تتأتى إلا للثاقب النظر الماهر البصر في الصناعة "[١] النقدية والأدبية ؛ لأنها " أدقّ وأرقّ من أن يُدركها كل مَنْ أبصرها "[٢] ، لأنها تحتاج إلى من صفت قريحته وسمت فطنته وتعالت ملكته ، وامتلك عدداً من المرجعيات المعرفية والآليات الإجرائية التي يدرك بها الخصائص التي تعرض لفنون القول ، وعرفان آياته الفنية وفك رموزه الإبداعية ، والوصول إلى ما يجيش في الصدر ويعتوره الفكر ، سواء كانت هذه الجمالية الأسلوبية ظاهرية تتصل بالخصائص الفنية للسياقات الأدبية، أو باطنية تتصل بالمدركات العقلية والصور الذهنية والمعاني النفسية ، التي هي عماد النصوص الفنية .

وقد أولى علماء العربية الجمالية اهتماماً كبيراً ووضعوا لها الأصول والقواعد التي تمكنهم من عرفان أسرارها ومنهجية تكوينها ، **وما البلاغة العربية إلا مبادئ جمالية وركائز فنية لعلم الجمال العربي** وفق معطيات تهتم بحسن الكلام ، والوصول به إلى وجدان المتلقي ، في تناسب لفظي ، وتلاؤم معنوي ، وتجانس فكري ، وتصوير تخييلي ، يبعث على المتعة الفنية ، والروعة الجمالية التي يتشكل منها النص الأدبي ، إن **جمالية** القول في "البلاغة العربية هي علم الجمال الأدبي عند العرب ، ومن هنا كانت مفاهيم البلاغة العربية ، وأسسها ، وقواعدها هي مفاهيم الجمالية الأدبية في تراث العرب الفكري ، كما تهيأ لهم أن يستخلصوها من روائع شعرهم وأدبهم"[٣]،

---

(١) القيان . أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . ص ٨٠ تحقيق : عمر أبو النصر . مطبعة النجوى ، بيروت . لبنان ١٩٦٩ . بتصرف يسير .

(٢) المرجع السابق ٨١ .بتصرف يسير .

(٣) مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ، د ميشال عاصي ، ص ٢٥ ، مؤسسة نوفل ١٩٨١م .

وزاد اهتمامهم بالنص القرآني من خبرتهم اللغوية وذائقتهم الجمالية ؛ لما وجدوا فيه من عذوبة في أسماعهم ، وحلاوة في نفوسهم ، وحسن أدائه ، وروعة بنائه ، وطرافة معانيه ، وبلاغة مبانيه ، فانصرفوا إليه يصنفون حوله الشروح بمعايير متنوعة تكشف أسراره اللغوية ، وبلاغته الأسلوبية ، فالبلاغيون وجدوا في تناسق كلماته ، وتناغم سوره وآياته ركيزة لغوية للجمال الفني والإعجاز البياني الذي يتمتع به القرآن ؛ لإنماء الوعي التشريعي والارتقاء بالفكر الديني ، والوصول بالنفس البشرية إلى طرق الهداية والابتعاد عن مناحي الضلال والغواية ، وعرفوا ارتقاء بنائه التركيبي ، وتواشج مفهومه الدلالي الذي يستمد جماله الأسلوبي ، وإعجازه البلاغي في حلاوة لفظه ، وطلاوة نظمه ، وجودة سبكه ، وأن التشريع السماوي غايته الوصول إلى أعماق النفس ومكامن الروح ، فكان الحرص على تشذيب كلماته ، وتهذيب آياته ضرورة فنية ، تستمد جمالها وروعة بيانها من صاحب الخطاب ورب الأرباب ، فتعانق البيان والجمال ، وتآزرت البلاغة والجلال حتى لا يمكن التفريق بينهما ، وصدق **ابن الأثير** في قوله : " شيئان لا نهاية لهما : البيان والجمال"(١).

(١) المثل السائر ، لابن الأثير ، الجزء الأول ص ٥٧ .

المبحث الخامس

(المعايير الجمالية والمقاييس الفنية في موروثنا النقدي والبلاغي)

وفيه أربعة مطالب :

عرف نقدنا العربي وموروثنا البلاغي النظرية الجمالية بمفهومها النقدي الحديث، غير أنهم لم يجمعوا شتاتها في نظرية نقدية على غرار المدرسة الغربية الحديثة، فكان لها سماتها وقسماتها التي تناثرت في مصنفاتهم البلاغية والنقدية، حتى قال أحدهم: " شيئان لا نهاية لهما البيان والجمال"[١] ومن الجور والبهتان حصر الظاهرة الجمالية لديهم في علم واحد من علوم البلاغة، أو في البلاغة دون غيرها من علوم اللغة الأخرى ؛ بل هي أعمٌّ وأشملُ من ذلك بكثير ، فالصورة الجمالية في موروثهم النقدي لا تحدّها حدودٌ ولا تمنعها سدودٌ ، فهي تحوي جميع مصادر العلوم اللغوية ، والمناهج الفلسفية ، غير منبتة من مساقاتها ، ولا مقطوعة عن تراكيبها ، فهي تسبح في فضاءات النصوص الإبداعية والصور التخييلية ، ومن الحيف تقييد الجمال في لوحة أدبية بلون بلاغي محدد وممارسة آليات مصطلحية على غرار المسائل الحسابية دون ذائقة فنية وملكة نقدية ، تحسن تأويل النصوص وتجيد استخراج درها واستكناه أسرارها وكسر أغلالها ، حتى لا تستحيل الصور الإبداعية حبيسة قواعد بلاغية ، وأدوات معيارية خالية من الانفعالات الوجدانية والعواطف الآدمية ؛ لأن الأحكام النقدية لا تقتصر على مرجعيات معرفية وأدوات إجرائية دون أن تكون مفعمة بالذوق المطبوع ، والحس المصقول حتى يحسن المتلقي التعامل مع النصوص الإبداعية ، وتمتزج في

---

(١) الأسس الجمالية في النقد العربي د : عز الدين إسماعيل ، ص ٣٧ .

مشاعره الوجدانية ، فيسبح في خيالاتها ، ويهيم في أجوائها ، لفك رموزها ، ومعرفة تأويلها ، واستقصاء جمالها ، فتجود عليه بسرها ونجواها ، وتنعم عليه بإيمائها وفحواها ، ويحدد سماتها الجمالية وخصائصها الفنية ، وكلما كانت الجمالية في النصوص الإبداعية يطويها شيءٌ من الغموض والإبهام ، والتخييل والإيهام ، وكانت المسافة شاسعة بين دلالاتها المعجمية الحاضرة في وعي المتلقي والدلالة الإيحائية الغائبة ، كان موقعها في النفس أحلى وبالمزية أولى ، وأخذها بمجامع القلوب أبدى ؛ لأنها تعزز ملكة التخييل لدى المتلقي ، وتستدعي مرجعياته المعرفية التي تمكنه من ممارسة آلياته الإجرائية لمعرفة أسرار النصوص الأدبية ، وشق قنوات يلج بها إلى القوة الإبلاغية ، والغايات الدلالية والصور التخييلية التي تسري في غياهب النص الأدبي والعمل الإبداعي .

ــ لقد حظيت النظرية الجمالية في البلاغة العربية بموفور ثَرّ من المقاربات ، والمقاييس الأسلوبية التي تخلع على النصوص الإبداعية مسحة جمالية ، وقد أنجزت الوجوه البلاغية أدوات إجرائية تُمكن الناقد من سبر أغوار المعاني ، ومعرفة جماليتها الفنية ، وروعتها البيانية التي تضطلع بها علوم البلاغة الثلاثة ، مستعينة بجميع فروع اللغة ونظرياتها للوقوف على انتقاء الألفاظ في جملها ، وجمالية انتظامها في تراكيبها ، والصور الذهنية للجمل ودلالاتها ، وكل ما يطرأ عليها من تغيير أو تبديل ، أو تعريف وتنكير، أو فصل ووصل ، أو ذكر وحذف ، ، ومدى مطابقتها للحال ، والمقام ، والسياق ، أو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وتراكيب متنوعة من تشبيه واستعارة ، ومجاز وكناية ، وتقديمها المعاني والصور ، والأخيلة في لوحات حسية ومعان وجدانية ، أو معرفة وجوه تحسين الكلام لفظياً

ومعنوياً ، وهي تُباكر بهذا كله المدرسة اللسانية الحديثة في نظريتها الجمالية ودراستها النقدية ، ورغم تقادم عهد بلاغتنا العربية ؛ فما زال عطاؤها في توجيه الخطاب الأدبي مُسْتَظْرَف ، وقدرتها على تحديد مساره الجمالي مُسْتَطرف ، واستطاعتها معرفة الظواهر الأسلوبية ، والخصائص اللغوية التي تمنح الكلام روعة فنية وقيمة إبداعية لا تُغفل ، وقدرتها على التواصل مع معطيات النص ، ومعرفتها الجمال المطبوع من الجمال المصنوع لا تخفى ، فالبلاغة العربية أعانت على وضع القواعد الجمالية التي ينفذ الناقد الحاذق بها إلى معرفة أسرار الألفاظ وإيحائها ، وجزالة جرسها وروعة إيقاعها ، وجودة انتقائها وحسن توظيفها ، وجمال تركيبها في سياقها .

ولن يستطيع البحث حصر جميع المقاييس الجمالية والمعايير النقدية التي وضع درسنا النقدي وموروثنا البلاغي أسسها ، وقامت عليه معاييرها في علوم البلاغة المعاني ، والبيان ، والبديع ، فهذا عمل يحتاج إلى الوقوف على جميع الظواهر الجمالية في البلاغة العربية ؛ ولكن نكتفي رصد بعض منها ليس على سبيل الاستقصاء والحصر والإحاطة بكل صورها ؛ وإنما على ذكر بعض أنماطها ، إذ يكفي من الزاد ما يُبتلغ به المحل ، ومن هذه المعايير الجمالية والمقاييس الفنية في موروثنا النقدي والبلاغي :

المطلب الأول : (التناسق التعبيري والتناسب التركيبي)

التناسق والتناسب يضم المؤتلف ويؤاخي بين المختلف ، ويحقق المتعة النفسية واللذة الوجدانية ، ويحقق في الكلام مبدأ التآزر بين الألفاظ الحاملة والمعاني الناقلة ، وتتعاضد فيه أدوات التعبير، ومناهج التصوير التي تجعل للنص طلاوة وتعلوه حلاوة ، ويتناغم فيه جرس الألفاظ في مفرداتها ، وإيقاع الجملة في تركيبها ، وتتناسب التراكيب في سياقها حتى تكون صادقة في

إبراز الحالة النفسية التي تنقلها ، والتجربة الذاتية التي تصورها ، فتسعد بها النفوس وتأنس بتحصيلها العقول ، ويقصد **بالتناسق والتناسب** : " حسن العلاقة القائمة بين الأجزاء المختلفة للأثر الأدبي ، حتى يتمتع كل عنصر منه بنصيب من الاهتمام والإبراز مع مساهمته في انسجام الكل وتماسكه "(١) ، وهما أحد ركائز الجمال في الإنسان والجماد ، والفن والأدب ، فالشعر لا يكون جميلاً إلا إذا تناسبت إيقاعاته الجرسية ، وتفعيلاته العروضية ، ولوحاته التصويرية ، والموسيقى لا تكون جميلة آسرة تأخذ بتلابيب القلوب إلا إذا تناسبت ألحانها مع الحالة الشعورية في إيقاعها وحسن أنغامها ، واللوحة لا تكون جميلة إلا إذا توزعت فيها الألوان في هيئة تنسيقية وطريقة تعبيرية ، وكل ذلك له علاقة وثيقة بالحالة النفسية التي تنعكس على روح المتلقي للنتاج الفني والعمل الإبداعي ، و" كلما وردت أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل وتأليف متناسب ، كان ذلك أدعى لتعجب النفس وإيلاعها بالاستماع من الشيء ووقع منه الموقع الذي ترتاح إليه " (٢) .

والتناسب والتناسق ، أو التقابل والاختلاف ، هما أهم روافد الجمال منذ عصر اليونان ؛ لأنها توفر مبدأ الانسجام الفني والتوازن الإيقاعي داخل سراديب النص الأدبي ، وهما من العناصر البارزة لوجوه التحسين اللفظي والمعنوي التي يعمل على توفيرها علم البديع في تراثنا البلاغي ، وكذا البحور الشعرية عند المدرسة النقدية ، فتكرار الوحدات الموسيقة ، والأوزان الشعرية على نغمات متشابهة ، وإيقاعات متواترة ، تعمل على الانجذاب النفسي والارتياح الوجداني ، فتصيب هوى في نفس المتلقي ، يستشعر في

(١) معجم المصطلحات الأدبية ، مجدي وهبة ، ص ٤٤٢ مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، ص ٢٤٥ .

رحابه بعض آيات الجمال الناشئ من التوازن والتوازي ، والانسجام والتآخي، مما يؤكد أن فكرنا العربي ونقدنا البلاغي لم تغب عليه هذه الروافد الجمالية ، بل كانت من الأسس الرئيسة التي قامت عليها بلاغتنا العربية ومدرستنا النقدية.

ومن **الظواهر الجمالية** التي تسهم في توفير التناسب الصوتي في البلاغة العربية : عنايتهم الفائقة بالوزن الشعري ، والنغم الجرسي ، والجناس، والطباق ، والتكرار والفاصلة ، والقافية ، فالوزن يعمل على توفير وحدات صوتية منتظمة على نغم محدد وإيقاع معين للبيت الواحد ثم للقصيدة كلها ، وذلك يقيناً منهم بفاعليته في تحقيق الجمال الناجم عن التناسب ، واطراد التفعيلات في القصيدة من بدايتها إلى نهايتها على لحن محدد ، وقافية واحدة ، فجمالية التناسب والانسجام تنشأ من التأليف بين المتناسبات ، والتقريب بين المتباعدات " وتمام التناسب : مقابلة الجزء بمماثله ، وتضاعف التناسب : هو كون ذلك في جزءين متنوعين كـ " **فعولن مفاعيلن** " في الطويل ، وتقابل التناسب : هو كون ذلك في جزءٍ موضوعاً من مقابله في المرتبة التي توازيه ، فإن كان الواحد في صدر الشطر الأول : كان الآخر في صدر الشطر الثاني ، وإن كان ثانياً : كان مقابله ثانياً ، وإن ثالثاً: فثالث ، فالأعاريض التي بهذه الصفة هي الكاملة الفاضلة ، وكلما نقص عروضاً شرط من هذه الشروط أو أكثر كان في الرتبة من مقاربة الكلام أو مباعدته بقدر ما نقص منه " [١] ، وهذا دليل على يقين البلاغيين القدماء بأهمية الوزن والقافية في توفير جمالية التناسب في النص الأدبي والنتاج الشعري ؛ لأن توزيع الحركات والسكنات ، أو ما يُعرف حديثاً في علم اللغة الحديث

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ص ٢٥٩ .

بالصوائت والصوامت ، يعمل على توفير مسحة جمالية ، ترجع إلى التناسب الصوتي الذي يوفره الوزن الشعري ، كما أن القافية ، والسجع ، والتصريع ، والجناس ، والطباق ، والتكرار ، أهم روافد الظاهرة الجمالية في البلاغة العربية .

وقد عملت البلاغة العربية على وضع المقاييس البلاغية ، وتأطير المعايير الفنية التي تعمل على توفير الملامح الجمالية في التراكيب اللغوية ، وتلك مهمة أُنشئت من أجلها علوم البلاغة الثلاثة ، المعاني والبيان والبديع ، فهي لا تكتفي ببحث الدلالة الوضعية للتراكيب اللغوية ، وإنما بحث ما وراءها من غايات فنية تمنح النفس طاقة تخييلية وصورة وجدانية ، تجعل النفس تحلق في سماوات إبداعها ، ويطوف بين حقولها ورياضها ، ويغادر بها آفاق التوقع عابراً المسافات الجمالية للنص ، ومن المعايير التي تعمل على الإدراك الجمالي للنتاج الفني : **التناسق** ، **والتناسب** ، **والتلاؤم** ، فهي تعمل على توفير الجمالية في النتاجات الفنية والنصوص الإبداعية ، فترابط ألفاظها ، وتماسك دلالاتها ، وانسجام أجزائها ، وتناسق عباراتها ، ومواءمة صيغتها الفنية للأسس الجمالية ، والمبادئ البلاغية لها دور جليّ ، وأثر غير خفي في تهيئة الحالة النفسية للمتلقي ، إذ تشبع مشاعره الوجدانية ، وتعمل على تقديم الأبعاد الداخلية للعمل الفني في تناسق صوتي ، وتلاؤم بصري ، وتناسب معنوي يجد صداه في النفس الإنسانية ومشاعره الوجدانية ، وتجعل النص لوحة فنية ، تتزاحم فيها ألوان الجمال متسابقة إلى وجدان المتلقي ، فيحرك سمعه ويأسر قلبه ، ويستميله إلى أن يصغي لجمال وقعه ، وتتاغم جرسه ، وتآخي معانيه ، مما يعود على المعنى بالتمكين ، ويزيده ثراءً وتزيين ، فا**لجمالية** إذن : أحد نتاجات الوحدة النسقية التي توفرها البلاغة

العربية للنصوص الأدبية ، وهي ابنة التناغم الفني والانسجام الإبداعي بين عناصر الكلام ، وصدق من قال : " الكلام أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار " (١) .

المطلب الثاني : (الانسجام الصوتي والتوازن الإيقاعي)

وهو أحد روافد الجمالية اللفظية في البلاغة العربية التي تكسب الكلام عذوبة في اللفظ ، ورقة في الطبع ، وتأثيراً في النفس ، وسلامة في النظم ، تتنادى فيه العلائق الصوتية المتباينة في تناسق فني ، وائتلاف تركيبي ، يترك حلاوة في السمع ورقة في القلب ؛ لحسن ترتيبه وروعة تأليفه ، وسهولة تركيبه ، وفيه يأتي" الكلام مُتحدراً كتحدر الماء المنسجم سهولة سبك وعذوبة ألفاظ ، حتى يكون للجملة من المنثور ، وللبيت من الموزون وقع في النفوس، وتأثيرٌ في القلوب ما ليس لغيره ، مع خلوه من البديع ، وبَعُدَ من التصنيع ، وأكثر ما يقع الانسجام غير مقصود ، كمثل الكلام المتزن الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفواً كمثل أشطار وأنصاف أبيات ، وقعت في أثناء الكتاب العزيز، لم يقع فيه من ذلك إلا ما هو على مثال البيت المفرد لا يسمونه شعراً قصد أو لم يقصد "(٢).

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، على بن عبد العزيز الجرجاني ، ص ٤١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، عيسى الحلبي ، ١٩٦٦م .

(٢) ينظر بديع القرآن : لابن أبي الأصبع المصري ، تحقيق . حفني محمد شرف ، الجزء الثاني ، طبعة الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث ، ص ٤٢٩ . بدون تاريخ .

وذكر أنه يقع في النثر والشعر والقرآن ، فمن القرآن قوله تعالى: **(خُـذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)**(١)ومن الشعر قول **أبي تمام** :

نَقِّلْ فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِن الهَوى ما الحُبُّ إلاّ للحَـــبيبِ الأوَّلِ
كَمْ مَنزِلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفَتى وحَنينُـــهُ أبداً لأوَّلِ مَـــنزِلِ (٢)

والانسجام عند السيوطي (٨٤٩ هــ ــ ٩١١ هــ) " أن يكون الكـلام لخلوه من الانعقاد منحدراً كتحدر الماء المنسـجم، ويكـاد لسـهولة تركيبـه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة ، والقرآن كله كذلك ، قال أهـل البـديع : وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءاته موزونة بلا قصد لقوة انسجامه "(٣).

ومن صور النظرية الجمالية في البلاغة العربية **التوازن الإيقاعي** وفيه تكون الألفاظ متناسقة في جرسها ، متوافقة في إيقاعها ، متعادلة في أوزانها ، متواردة على نحو من التسجيع ، فتمنح النص روعة فنية ، وقيمة إبداعيـة ، ونغمة موسيقية ، وله دور فاعل في بناء النص اللغوي والبناء التركيبي ، وما يعتري جنسه البنيوي من انسجام وقعي ، وتناغم جرسي ، يوائم إيحاء الألفاظ ومقتضيات الدلالة ، ويتأتى عن الانسجام الصوتي المتدفق من البنى الصرفية، والنحوية ، والصوائت مع الصوامت .

وهو يتألف من انسجام المقاطع الصـوتية فـي التراكيـب اللغويـة ، والتوازن في التسجيع ، والتعادل في الأوزان ، والتـوالي فـي الأجـزاء ،

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق : محمد عبده عزام ، الجزء الثالـث ، ص ٢٥٣، الطبعة الثالثة دار المعارف ، مصر .
(٣) الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي تحقيق ، محمد أبـو الفضـل إبـراهيم ، الجزء الأول، ص٥٩، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م .

والتكرار النابع من تواتر الوحدات المفردات أو الوحدات الصوتية ، أو إيقاع النظم ، والفاصلة ، والمقابلة ، والترصيع ، والموازنة ، وغير ذلك من صور البديع ، حتى تتموسق الكلمات في سياقها ، وتتناغم في إيقاعها ، وهو عند ابن الأثير " أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن ، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساويّ الألفاظ وزناً ، وللكلام بذلك طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال ؛ لأنه المطلوب في جميع الأشياء ، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلةً وقعت من النفس موقع الاستحسان ، وهذا لا مراء فيه لوضوحه "[١] ، فتوزيع الحركات والسكنات أو الصوائت والصوامت مبدأ راسخ في تحقيق جمالية التوازن الإيقاعي ، وهو أحد ألوان السجع عند الخطيب القزويني ، ويطلق عليه سجع الموازنة ، وحدّه بقوله : " أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية " [٢]، ومثّل له بقوله تعالى : "**ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة**" [٣] ، ثم عدل عن مفهوم الموازنة إلى مفهوم آخر سماه المماثلة ، وتكون " في إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن " [٤]، ومثّل له بقوله : "**وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم**"[٥] وقول أبي تمام:

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد ، الجزء الأول ، ص ٢٩١ ، تحقيق د : أحمد الحوفي ، ود : بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) الإيضاح للخطيب القزويني ، ص ٣٢٨

(٣) الغاشية : أية ١٥، ١٦

(٤) الإيضاح للخطيب القزويني ، ص ٣٢٨ .

(٥) الصافات : الآية ١١٧، ١١٨ .

مها الوحش إلا أن هاتا أونس قنا الخط إلا أن تلك ذوابل [١]

ويرصد توازن الكلمات في سياقها ، وتلازم العبارات في تركيبها ، وشحنها بطاقات تعبيرية وظلال تصويرية تلامس المشاعر الوجدانية ، فلا يقتصر دورها على الجمال الصوتي والتزيين النغمي ، وإنما يسري تأثيرها في البنى التركيبية والظواهر السياقية والقيم الجمالية الفاعلة في النص الشعري والعمل النثري ، وقد احتل التوازن الإيقاعي منزلة سامية ودرجة عالية في مستويات الأداء القرآني ونسقه البياني ، فلم يقتصر دوره على الجمال الصوتي والتوازن النغمي ، وإنما كان ضرورة فنية ومسحة جمالية تمنح النصوص التشريعية طاقات تكثيفية تجعل النفوس لها مصرفة والآذان بها مشغوفة ، فتكون أكثر إشراقاً في العواطف الإنسانية التي تتراءى في وعي المتلقي.

لقد حفل البلاغيون والنقاد قديما بالتوازن الإيقاعي في البيان القرآني وعدوه رافداً من روافد الجمال الذي يلوح في نظامه الصوتي ويتجلى في انسجامه الأسلوبي ، ومكنته من تلوين مقاطعه اللفظية بوحدات جرسية وصور نغمية قادرة على تصوير المعاني وتمثيلها في هيئة متجددة حية ومشاهدة مرئية ، تحيط نفسها بهالات نورانية ، وظلال إيقاعية تحقق الاستقرار النفسي وتنشر الإيناس القلبي ، فإذا رُتِّلتْ آياته على العربي والأعجمي ، أو الحضري والبدوي ، وجد تجانساً صوتياً ونغماً إيقاعياً بديعاً في نظامه التركيبي ، تطرب له الآذان وتخشع بصوته الأبدان ، فلا يستشعر المتلقي فيه كلمة نابية ، ولا متكلفة جافية ، وهذ أحد روافد الإعجاز في ألفاظ القرآن ،

(١) ديوان أبي تمام ، بيروت ، ص٢٢٦

الذي نُسقت مفرداته وتهيأت آياته لمخاطبة وجدان المتلقي بلغة جمالية وروعة بيانية ، ومقاييس الجمال التي رصدها البلاغيون والنقاد قديماً كثيرة ومتنوعة، نكتفى من زادها ما يتبلغ به محلنا.

المطلب الثالث : (الفصاحة عنصر الجمال الصوتي في التراث البلاغي والنقدي)

لفصاحة الكلمات أثر عظيم في المكون الجمالي في الحقل الدلالي ؛ ولذلك فقد أولاها البلاغيون دوراً متميزاً في البناء الصوتي والجانب الدلالي ، فوضعوا المعايير التي تؤطر جمالها وحسنها وتعمل على سلامتها من العيوب التي تخل بفصاحتها كالتعقيد والغموض ، أو تنافر الحروف والكلمات مما يؤثر على المنحى الجمالي والتأثير البلاغي .

وفصاحة الكلام تبدأ من جزالة الألفاظ وانتقائها ، وحسن سبكها ، واتساق نظمها ورونق مدلولها " وهذه حقيقة واضحة ، فأنت إذا قلت : إن الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها ، أو أن المعاني كالجواري والألفاظ كالمعارض لها ، فإنه يقصد بالألفاظ الدلالات الثانية التي تسمى أحياناً زينة أو حلية أو طلاوة أو وشياً أو كسوة " [١].

ـ فعند **ابن سنان الخفاجي** (٤٢٣هـ ـ ٤٦٦هـ) أخذت الفصاحة تأخذ طابعاً فنياً أقرب إلى النظرية الجمالية في المدرسة الغربية ، فجعل لها شروطاً تؤطر للمفهوم الجمالي في تراثنا البلاغي ، منها صوتية : كتباعد مخارجها، وحسن موقعها من السمع ، وأخرى دلالية : ألا تكون وحشية ، ولا عامية ، وألا تشذ عن القياس الصرفي والنحوي ، وألا تكون فيما يُكره ذكره .[٢] ،

---

(١) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص ٢٠٣

(٢) ينظر سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، ص٢٠، بيروت لبنان،١٩٨٢.

كما رصد **ابن سنان الخفاجي** بعض المعايير الفنية للفصاحة التي تتطابق في مفهومها وتواتر في فكرها مع النظرية الجمالية الغربية الحديثة ، مما يؤكد وعيه بكثير من أفكارها، وتأسيساً لمعالم جمالية سبقت إليها مدرستنا البلاغية والنقدية ، وهذا يحتاج إلى من إعادة توظيفها وحسن عرضها حتى يقوم بناء نظرية جمالية عربية ، وقد شبه ابن سنان توظيف الحروف في الكلمات ومخارج الأصوات في تقاربها أو تباعدها بالنقوش والألوان ، فلا بد من حسن استخدامها في سياقها ، وجمال توزيعها في تركيبها ، فلا تتقارب حتى لا تحدث التنافر ، وإنما تتقارب حتى يتم حسنها ويحسن توظيفها .

والفصاحة **عند ابن الأثير (٥٥٨هـ - ٦٣٧ هـ)** " وصف حُسن اللفظ لا وصف قبح " [١] ، وقد سبقت نظرته الجمالية المدرسة الغربية في كثير من معاييرها ، فـ " الألفاظ عنده تجري في السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذي دماثة ولين أخلاق ولطافة مزاج ، ولهذا ترى ألفاظ أبي تمام كأنها رجال قد ركبوا خيولهم ، واستلأموا سلاحهم، وتأهّبوا للطّراد ، وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهنّ غلائل مصبّغات وقد تحليّن بأصناف الحليّ ، وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته ههنا وجدتني قد دللتك على الطريق ، وضربت لك أمثالاً مناسبة " [٢]، فما ذكره عن الفصاحة يعد تأصيلاً واضحاً للنظرية الجمالية في بنائها اللغوي وأثرها الفني ، والألفاظ عنده لها حلاوة في السمع تشبه حلاوة المطعوم في الفم ، فلا تشذ في السمع ، ولا ينبو بها الطبع ، عندئذٍ يكون لها " حلاوة كحلاوة العسل،

(١) المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير ،: الجزء الأول ، ص ٨٠ .
(٢) المرجع السابق : الجزء الأول ، ص ١٨١ .

ومرارة كمرارة الحنظل ، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم"[١]، والفصيح من الألفاظ ما كان ظاهراً بيّناً مأنوساً في أذن المتلقي ، يستلذه السمع ولا ينفر منه الطبع ؛ " لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ ؛ لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف ، فما استلذه السمع منه فهو الحسن ، وما كرهه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح غير موصوف بفصاحة " [٢] .

والجمالية عند **صاحب الطراز (٦٦٩ هـ ٧٤٩ هـ)** تكمن في فصاحة الكلمة المفردة ، وتتأتى من حسن التركيب وجمال الترتيب ، وأن تكون حروفها من العذوبة والسلاسة ، غير مستكرهة ولا مستقبحة ، ليس فيها ثقل ولا يعتريها تنافر ، وأن تكون منسجمة في أوزانها متناغمة في إيقاعها ، خفيفة على اللسان ، لذيذة في الآذان ، حلوةً في الأذواق ، جميلة في تركيبها ، ملائمة في سياقها ، تجمع الرقة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والمرجعية الجمالية لديه مردُّها إلى الذوق السليم ، والطبع المستقيم ، وأن تكون اللفظة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة ؛ لأن الفصاحة والبلاغة مخصوصان بهذا اللسان العربي ، وأن تكون جارية على العادة المألوفة غير خارجة عن الإبانة المنشودة ، وأنت تكون متعارفة في الاستعمال جارية على المعيار ، تجمع ما بين الرقة والجزالة ، فلا هي غريبة وحشية ولا خفيَّة عصيّة .....

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، الجزء الأول ، ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ٨٢ .

وأن مستند الحسن والقبح والإعجاب والنفور في تأليف الكلام إنما هو سلامة الطبع وتحكيم الذوق(١).

والفصاحة عند **الخطيب القزويني (٦٦٦ هـ - ٧٣٩ هـ)** : تكمن في خلوها من ضعف التأليف أو التعقيد الناجم عن اضطراب البناء التركيبي ومخالفته للقياس النحوي ، وبعدها عن تنافر الحروف أو الكلمات ، حتى لا يمجها الذوق ويستثقلها السمع من شدة انتقال اللسان بين حروفها فيجد صعوبة في نطقها ، ومثل لها بكلمة " **الهعخع**" التي قالها الأعرابي عندما سئُل عن ناقته أين تركتها ، فقال : تركتها ترعى " **الهعخع** " وكلمة " **مُسْتَشْزِرَاتٌ** في بيت امرئ القيس : **غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَىْ العُلَا** . (٢)

لا تقتصر جمالية البلاغة العربية على مهمة توصيل الكلام إلى المتلقي في بناء سليم خال من العيوب وحسب، أو الوقوف عند معرفة أحوال اللفظ العربي ومطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال ومتطلبات السياق ، ومعرفة خصائص التراكيب ودلالاتها وحدها ، وإنما على ما تقوم به هذه الأساليب وتلك التراكيب من مهمة إبلاغية تقوم على التكثيف الدلالي والانطباع الجمالي، فتدرس جرس الكلمة المفردة وإيحاءها وتبحث أثرها في جملها ، ودورها في تركيبها ، وانتظامها في سياقها ، والارتقاء بها نحو معان جزلة وإيحاءات كثيفة تضفي على التعبير مسوحاً قشيبة من الجمال ، وظلالاً كثيفة

---

(١) ينظر كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحي بن حمزة العلوي، الجزء الأول ، ص ١٠٧ ــ ١١٣ ، مطبعة المقتطف ، مصر ١٣٣٣هـ

(٢) الإيضاح : للخطيب القزويني ، ص ٢٦،٢٧ ، والبيت من ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف مصر ، القاهرة . ص ١٧ ، وتكملة البيت : تضل المدارى في مثنى ومرسل

من الجلال، حيث تغادر فيه الكلمات والجمل والعبارات إلى ساحات بعيدة من الأسلوب الفني الجميل والنمط البياني البديع ، فتلقي في النفس لـــذة روحيـــة ومتعة قلبية .

ويرتبط علم المعاني بظواهر جمالية تقوم على التكثيف الدلالي والأثـــر الإيحائي والعدول التركيبي ، وهذا دليل على أن المهمـــة الأولـــى للبلاغـــة العربية والدراسة النقدية هي مهمة جمالية ووظيفة تأثيرية نرجوها في علـــوم البلاغة الثلاثة ، إذ ليس غايتها نقل الكلام إلى الأسماع مـــن أجـــل الإفهـــام والإخبار والإعلام دون اعتبار بأثره النفسي وطابعه الوجـــداني ، ووظيفتـــه الجمالية التي تجعل القلوب به مشغوفة ، والآذان إليه مصـــروفه ، والتخييـــل الذي يحلق في سماوات التكثيف والتصوير ، وبهذا تكون مهمة البلاغة إضفاء الطابع الجمالي علي العمل الإبداعي ، فلا تتوقـــف غايتهـــا علـــى الدلالـــة الوضعية المباشرة للتراكيب اللغوية ؛ وإنما غاياتها وضع المعايير التي تعمل على انتظام الكلمات في سياقها، وتخير ألفاظها في جملها، وانتظامهـــا فـــي تراكيبها مع أغراضها ، ولذلك نرى جمهرة من المفردات التي تزخـــر بهـــا مصنفات البلاغة والنقد، تحمل أحكاما جمالية للنصوص الأدبية ، تدور فـــي بؤرتها حول مفهوم الجمال الفني والرونق الأسلوبي، مما يؤكد وضوح الرؤية الجمالية المبكرة لخصائصها الفنية وقيمتها التعبيرية ، كقولهم : هذا بيت بديع ، وتشبيه لطيف ، واستعارة أنيقة ، وكناية بديعة ، وتعريض حسن ، وجـــودة الصياغة ، وحسن النسج ، وملاحة التحبير، والرونق ، والخلابة ، والملاحة، لطيفة عجيبة ، وأعلق بالقلب، وأغرب في النفس وأبهـــى وأزيـــن ، وآنـــق وأعجب....وجميع هذه الكلمات تحمل معنى الحس الفني والانطباع الجمالي.

وبهذا تكون **الفصاحة** من أهم مقومات النظرية الجمالية في البلاغة العربية ؛ لأنها معنية بفنية النصوص الإبداعية والعمل على خلوها مما يعيبها وينتقص من حسنها وجمالها ، وجميع ما وضعه البلاغيون كشرط لفصاحة الكلام يندرج تحت ما يعرف الآن بالجمال الأدبي " لما فيه من تركيز على سلامة النطق وتنقية الجمال المطبوع من الجمال المصنوع وذلك بالاعتماد على الذائقة الفطرية التي لم تعرف التمويه والتشويه ، فالكلمة المسموعة بفصاحتها زخارف الفن العربي ؛ لأن كلاً منهما يقوم على البناء الهندسي ، وهنا يكمن جوهر التعامل الجمالي المميز في الذهنية العربية ، وهذا أيضاً ما يميز الشكل الخاص للوعي الجمالي العربي " [١] الذي يستقي روافده ويستمد مناهجه من التناسب الفني والانسجام اللغوي ، والسلامة من العيوب التي تخل بفصاحة الكلام وتحرم النص الإبداعي من البلاغة والبيان .

المطلب الرابع: (الإيحاء عنصر الجمال التخييلي في التراث البلاغي والنقدي)

الإيحاء: قوة تخييلية ودفقة شعورية تطلق العنان للمتلقي حتى يسبح في فضاءات الخيال الرائي ، فينسج الخيالات التصويرية التي تكسب النص معان تعبيرية ذات طاقات تكثيفية ، والإيحاء نمط ذهني صعب يتخطى فيه المتلقي الدلالة اللغوية والمعاني المباشرة للألفاظ ، ويقفز على الدلالة الوضعية للوصول إلى الدلالات المتوارية خلف التركيب اللغوي للسياق ؛ للقبض على المعاني الإيحائية والصور التكثيفية لها ، وهو قوة فاعلة في النتاجات الأدبية والصور الإبداعية ، وهو صورة جمالية تمنح الألفاظ والتراكيب دلالات تكثيفية هائلة وصوراً تعبيرية متنامية ؛ لكنه يحتاج إلى إطالة النظر وإمعان

---

(١) الجمالية في الفكر العربي ، د عبد القادر فيدوح ، ص ٤٨ ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩ م

الفكر وإعمال الذهن في السياقات التركيبية للبناءات اللغوية للوصول إلى أعماقها واستخراج مكنونها ، وهو إعادة إنتاج النص واستيعاب المعنى للوصول إلى عدد من التأويلات والتفسيرات التي تخلع عليه ثراءً فنياً متجددا، ونماءً بيانيا متطورا ، وهو مهمة المتلقي الذي يمتلك قدراً كبيراً من المعايير الفنية والأدوات النقدية التي يستطيع بها فتق معان تكثيفية وصور إيحائية وفق رؤية فنية متجددة ، وللإيحاء معايير نقدية ينطلق المتلقي منها حتى لا يكون أداة لتشويه النصوص الإبداعية وتحريفها ، أو العدول بها بعيدا عن غاياتها ، فهو يحتاج إلى متلق حصيف يمتلك ملكة فنية وحاسة ذوقية ومعايير نقدية تجعل النتاجات الإبداعية لها قوة تأثيرية فاعلة وقوة إنجازية متوازنة ، تنطلق من الانسجام الصوتي والتوازن النصي والتضام التركيبي ، وفي إطار صوتي يمتثل لقدرات اللغة ومعرفة مستوياتها الصوتية ، والدلالية، والتركيبية ، والتداولية ، والتأويلية .

حتى تكسب المعنى ثراءً وتمنحه حلاوة وبهاءً ، وتؤنس النفس من روعة تخييلها وتكثيف إبداعها ، وقد رصد البلاغيون له مصطلحات عديدة تدور في مضماره ولا تغادر ساحاته كالإيماء ، والتعريض ، والتلميح ، والتلويح ، والاستعارة ، والتخييل ، والكناية ، والتعريض ، والرمز ، والإشارة ، وغيرها .

والإيحاء في مضمونه يعني الدلالة إلى معنى غير ظاهر من صريح الكلام ، ولا تضطلع به الدلالة المباشرة للألفاظ ، فيتخذ من الإشارة ، والرمز، والإيهام ، والتلويح ، والتلميح ، والكناية ، والتعريض ، والتشبيه ، والاستعارة ، والمجاز منطلقاً ، للوصول إلى تأويلات ذهنية تتداعى فيها المعاني وتتكاثف بقليل من الألفاظ ، وقد احتفل به البلاغيون والنقاد قديماً ،

وعدوه أحد معايير النتاج الفني والنص الأدبي ، ويكفي قول الجاحظ في حديثه عن حد البيان وأدواته : " أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره " [١]، وقوله : " ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي كالوحي والإشارة " [٢].

والإيحاء أحد المعايير الجمالية في البلاغة العربية ، ولا يمكن حصره في لون من البلاغة دون غيره ، وقد تناوله البلاغيون والنقاد تحت مسميات عديدة بوصفه ظاهرة فنية تعزو جماليته إلى التكثيف الدلالي الذي يضطلع به، وهو صورة من صور الثراء الفني التي لا يمكن للناقد إغفالها ، وعليه مهمة إثرائها ، ومن التعبيرات الدالة على الإيحاء : الإيجاز ، والمجاز ، والتخييل ، وعدّوه ملمحاً جمالياً يكسب الكلام روعة فنية وقيمة إبداعية .

أولاً : الإيجاز من المعاني التي دار حولها كثير من البلاغيين والنقاد ، فوضعوا حدوده وطبقوا معاييره على القرآن والشعر والنثر ، وعدوه أحد أبرز أهداف البلاغة وأهم غاياتها ؛ لأنه يتخذ من الومضة الخاطفة والجملة المقتضبة وسيلة إنتاج الدلالات الكثيفة ، والوصول بالقليل من الألفاظ إلى الكثير من المعاني ، وهو عند **ابن الأثير**" أعلى طبقات الكلام مكانا، وأعوزها إمكانا "[٣]، لاسيما الإيجاز بالحذف ؛ لأن أدعى إلى اتساع التأويل وكثرة التفسير، وهو" أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب ، ولو

---

(١) البيان والتبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ ، الجزء الأول ، ص ٨٧، الناشر دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ١٤٢٣هـ .

(٢) المرجع السابق ، الجزء الأول : ص ١٤٣ .

(٣) المثل السائر لابن الأثير في أدب الكاتب والشاعر، ، الجزء الثاني ، ١٠٥

ذكر الجواب لكان مقصوراً على الوجه الذي تناوله الـذكر" [١] ، ذلـك لأن المعاني تخرج معه قليلة اللفظ غزيرة الدلالة ، وهو عند الإمام عبد القـاهر " باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفـادة ، وتجـدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن " [٢] .

والإيجاز فنٌ من فنون البلاغة يحتاج إلى جمال فطري وتسلح نقـدي ، وصفاء ذهني لملأ فراغاته وسد فجواته والولوج إلى الجوانـب الخفيـة فـي النصوص الإبداعية ، وهو من جمالية البلاغة العربية ، التي يصل به المعنى إلى وجدان المتلقي في صورة تأثيرية ومعان تكثيفية ، وقد قلد ابـن المقفـع البلاغة بعقده ، وزينها بحسنه في تعريفه لها بقوله : " البلاغة اسـم جـامع لمعان تجري في وجوه كثيرةٍ ، منها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكـون في الاستماع ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكـون خطباً ، وربما كانت رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فـالوحي فيهـا والإشارة إلى المعنى أبلغ ، والإيجازُ هو البلاغة"[٣].

ومما أكسب الإيجاز مزية ومنحه قيمة فنية ، هو تحفيز المتلقي إلى سد الفجوات وملأ الفراغات التي يتركها الحذف ؛ لتذهب النفس فيها كل مذهب ،

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي البستي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القـرآن ، ص ٥٢ ، تحقيق محمد خلف الله ، ود : محمد زغلول سلام ، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .

(٢) دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص١٤٦

(٣) الصناعتين في الكتابة والشعر ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، تحقيق علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ١٤ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ ١٩٥٢م .

فيفسح المجال للتأويلات المتعددة والتفسيرات المتنوعة ، حتى نخرج من الكلمة المفردة الكثير المعاني ، ونجني من الجملة الواحدة أنواعاً الدلالة " والإيجاز البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ ، والإيجاز إظهار المعنى الكثير باللفظ اليسير ، والإيجاز والإكثار إنما هما في المعنى الواحد " (١) ، فالمعاني في محرابه أوسع نطاقاً وأبعد خطاباً ، والألفاظ أقل عدداً ، وأكثر احتفاءً بالرمز والإشارة ، واللمحة الخاطفة ، والدلالة المباغتة التي يكون معها المعنى غزيراً واللفظ يسيراً ، والإيجاز بالقصر أنقع غلة وأوسع دلالة من الإيجاز بالحذف ؛ لأنه أدعى إلى التعمية والغموض والإبهام ، فيحفز الفكر ويستفز الذهن للقبض على غاياته ، وتحديد أبعاده ، ولهذا قال الرماني : " وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف ، فهو أغمض من الحذف ، وإن كان الحذف غامضاً " (٢).

وهو من أعلى مراتب البيان القرآني ؛ لأنه أغمض في بلاغة القول التي تمنح الكلام قوة تخييلية وطاقة تكثيفية وتحفز الذهن لجمع غائبها وتأويل شاردها ، والإيجاز وثيق الصلة بجماليات النص ، وأبعد تأثيراً بالروابط القائمة بين تشكيلاته وتأثيراته وروابطه التي تتقاطع وتتبادل من أجل الوقوف على رموزه الفنية وإيحاءاته التصويرية ، وبهذا **نخلص** إلى أن الإيجاز أحد صور الإيحاء وجمالياته الفنية ، وهو مصدر خصب لإنتاج الدلالة ووفرة المعاني وغزارة الأفكار والرؤى ، بما يكتنف نشاطه اللغوي ومظهره الفني

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، علي بن عيسى بن علي أبو الحسن الرماني المعتزلي ، تحقيق محمد خلف الله ، ود : محمد زغلول سلام ، ص ٨١، سلسلة ذخائر العرب ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٧٦م .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٧

من معان إيحائية وأحاسيس وجدانية تحمل دلالات أكثر تكثيفاً وأبعد تخيـــيلاً وأشد تأثيراً ، وللإيجاز أثر بالغ في فهم جماليات النص مما يؤكد أن بلاغتـــه تقوم على التذوق الجمالي لمدلول النص الغائب ، والانتقال الفني من التشكيل اللغوي القائم إلى استحضار المقدر الغائب.

ثانياً : الخيال أحد روافد النظرية الجمالية في البلاغة العربية ، وهـــو سمة جمالية ، وقوة ذهنية ، وطاقة وجدانيـــة ، قـــادرة علـــى الجمـــع بـــين المتناقضات ، والتأليف بين المتباعدات ، يفزع إليه الشعراء والأدباء ؛ لتكوين صور ذهنية ، وخيالات عقلية في ضوء خبراتهم المعرفية وتجاربهم الإنسانية ، يعيدون في أجوائها إعادة ترتيب الواقع على نحو يشبع تجـــاربهم النفســـية ومشاعرهم الوجدانية .

والخيال ملمح جمالي ضمن عالم افتراضي يتجلى في النفس ، ويتسامى في الذهن بقدرات متباينة ، وملكات متفاوتة ، يهرع إليه المبـــدعون عنـــدما تضيق بهم المفردات ، وتعجز عن تلبية مشاعرهم الجمل والعبارات ، فيعيدوا صياغة العالم من حولهم حتى يلوح في خيالات تصويرية ومعان تشخيصية ، ولعلم البيان قصب السبق في سُلم الخيال ، فالصورة التشبيهية ، والاستعارية، والمجازية لها روعة فنية وصورة تخييلية ، تستحيل معها المعاني النفسية في هيئات تجسيمية ، أو صور تشخيصية ، فإذا هي ماثلة حية ومشاهدة مرئية ، أو تخلع على الجمادات ، أو المخلوقات صفة إنسانية ، فإذا هي ناطقة حية ، تشاركنا أفراحنا وأتراحنا ، وتعكس ما تجيش به صدورنا ، وما تلتـــاع بـــه نفوسنا.

والخيال في النظرية الجمالية العربية وســـيلة فنيـــة لإعـــادة ترتيـــب الموجودات من حولنا والمعاني النفسية التي تجيش في صدورنا ، وتحتشد في

أفئدتنا ، وهو عماد التصوير الفني والنتاج الإبداعي الذي يحتل منزلة عالية ودرجة سامية من النفس " والملكة الرائعة لمن أحسن استخدامها والأداة الطيعة لمن نضجت فكرته ، وتوقد ذهنه وعمق موضوعه ، فيُلوّن الواقع العياني تلويناً جميلاً يلذ للنفس، ويكون منظومة فكرية جديدة ، فإذا خارت القوى الفكرية وكانت التجربة الشعورية سطحيةً ، أو غائمة ، وكان الذهن بليداً غدت الأخيلة مدعاة للسخرية ، في صور مفتعلة مرتبكة في مكانها قلقة لا قرار لها ، ولا تعاون مع النسيج العام للنص"(١).

إن **الخيال** في النظرية الجمالية العربية طائرُ رنَّامُ يُحَلّقُ في سماوات الإبداع التي يحياها الأدباء والشعراء ، يترفعون به عن حياتهم الواقعية الماثلة في عقولهم ، ويطوفون به في فضاءات الإبداع الفني والنتاج الشعري ، وكلما كان خيالهم بعيداً سميا ، كان النص رفيعاً علياً ، **وهو في البلاغة العربية :** أحد دعائم النظرية الجمالية ، والأب الشرعي للصور الأدبية التي تخاتل الفكر بجمالها وقوة إبداعها وروعة تأثيرها ، فتكون أشد تأثيراً في نفوسنا وأرسخ مكانة في أذهاننا ، وقد تناوله **البلاغيون والنقاد** قديما عند حديثهم عن التشبيهات ، والاستعارات ، والمجازات ، التي أغرق قائلوها في معانيها وأبدعوا نسجها في مبانيها ، فتجلو الهم وتشحذ الفهم ، ومن صورها تشبيه الشيء بالشيء من جهة الشكل ، واللون ، والهيئة ، والحركة ، والصوت ، وغير ذلك مما يجري مجراه .

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ، دكتور : أحمد ياسوف ، تقريظ د : محمد سعيد البوطي ، وتقديم د: نور الدين عتر ، ص ١٠٦ ، دار المكتبي ، سوريا دمشق ، الطبعة الثانية ٢٠٠٦م

إن روافد النظرية الجمالية التي يمتلكها الأدباء والشعراء ، ويكسرون بها أفق الواقع ،ويحطمون بها حقائق ثابتة ، ويقفزون بها خلف أسوار الحياة، في حبكة فنية وصنعة شعرية " تَمُدُّ باعها ، وتَنشر شعاَعها ، ويتسع مَيدانها ، وتتفرع أفنانها ، حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتخييل ، وحيث يُقصد التلطُّف والتأويل ، ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذم ، والوصف والنعت ، والفخر والمباهاة ، وسائر المقاصد والأغراض ، وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يُبدع ويزيد ، ويُبدي في اختراع الصور ويُعيد ، ويُصادف مضطرباً كيف شاء واسعاً ، ومَدداً من المعاني متتابعاً ، ويكون كالمغترف من عَدٍّ لا ينقطع ، والمُستخرج من معدنٍ لا ينتهي ..... ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة ، فإنها كالجواهر تُحفَظ أعدادها ، ولا يُرجى ازديادها ، وكالأعيان الجامدة التي لا تَنْمي ولا تزيد ، ولا تربح ولا تُفيد ، وكالحسناء العقيم ، وكالشجرة الرَّائقة ، لا تُمتّع بجَنىً كريم ..... هذا ونحوه يمكن أن يُتعلق به في نصرة التخييل وتفضيله " (١)

وللخيال قيمة جمالية وروعة بيانية تستمد حسنها من رونق إبداعه ، وغزارة معانيه التي تتدفق ، ومشاعره التي لا تتوقف ، وخلجاته الشعورية التي تستمد شعاها من سماوات النص الشعري والنتاج الأدبي ، وقد استطاع البلاغيون أن يضعوا معاييره ، وأن ينظموا موازينه ، ما يؤكد أن الخيال عندهم أحد روافد الجمالية البلاغية التي أحسنوا توظيفها ، وطبقوا على النص الأدبي معاييرها .

---

(١) أسرار البلاغة : للإمام عبد القاهر الجرجاني ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

المبحث السادس

(أنواع الجمال الأدبي في موروثنا البلاغي والنقدي) وفيه مطلبان :

عرف العربي القديم الجمال بشقيه المادي والمعنوي ؛ لأنه متعلق في وعيه بنفسه البشرية ومتغلغل في تكوينه بمشاعره الإنسانية ، **فالتفكير الجمالي** لدي شعرائنا الأوائل كان جزءاً من ثقافتهم الشعرية التي تتفرع منابتها وتستمد أرومتها من معطياتهم البيئية وحياتهم اليومية ، وما ورد في أشعارهم من صور بيانية زاهية مغارسها ، ونماذج تخييلية زكية محاسنها انعكاس لرؤية جمالية تستقي روافدها من تفاعلهم النفسي مع جميع مظاهر الطبيعة حولهم ، ومن يمعن النظر في إبداعهم ويطيل الفكر في أشعارهم يقف مبهوت الرؤى أمام صور تفجر الحياة في موروثنا وتحقق الانبعاث في ذواتنا ، وتجعل الحنين إلى الماضي متدفقاً في أعماقنا ، بفضل توظيف موهبتهم الذاتية وملكتهم الشعرية التي نذروا أنفسهم لتصوير الحياة اليومية والمشاعر الإنسانية، وحلقوا بأبهى الخيالات في وصفها وأزهى العواطف في تصويرها، وقد استشرف **النقاد والبلاغيون** نتاجهم ورصدوا مواطن الجمال والقبح في أشعارهم ، وتبينوا جيدها من رديئها ، ونذروا أنفسهم لمعرفة أسرارها وجماليات إبداعها ، فلما تدارسوا **البيان القرآني** رأوا انبعاث الجمال والسحر من ألفاظه وكأن لغتهم العربية قد بعث معه خلقاً جديداً غير ما ألفوه في أشعارهم أو سجعهم وخطبهم ، فالقرآن إفصاح موجز في إيضاح معجز ، يخرج في بديع لفظه وتناسق نظمه ، وغرابة أساليبه ، وتآخي تراكيبه عما ألفته العرب في أشعارهم ، ولا يقترب من النثر الذي يقولوه في خطبهم ، غاية في البلاغة آية في البراعة ، لا تقع العين فيه على شيء من التكلف ، أو التصنع والتعسف " وقد يكون كلام البشر فصيحاً مليحاً موصوفاً بالجودة ،

وأنه مطابق للمعنى سليم من التعمق والتعسف والتكلف ، بريء من النقصان والزيادة ، حسن المجاورة ، تتبع الكلمةُ فيه الكلمةَ التي تناسبها ، وتكون بها أولى من غيرها ، خفيف على السمع حلو في النطق جار على المعتاد من كلام الفصحاء والبلغاء ، ومع ذلك فلا يقارب القرآن في شيء من ذلك ولا يدانيه " [١] ؛ لذا فقد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله لإحكام معانيه ، وانتظام مبانيه ، وفصاحة لفظه ، وبديع نظمه ، فأساليبه عالية وبلاغته سامية ليست في مقدور إنس ولا جان أن يأتوا بمثلها ، فهي تستمد جمالها وروعة نظمها من ذاته الإلهية ، وروحه الربانية ، ولا يشك ذو بصيرة في نزولها من عند الله ، فجمال القرآن ينبع من روعة نظامه وغرابة بنائه ، ومخالفته المعهود من كلام البشر ، في نمطه الغريب ورصفه والترتيب ، ومعانيه السامية ومقاصده العالية .

المطلب الأول: (الجمال الحسي والمعنوي في التراث البلاغي والنقدي)

الجمال الحسي : هو الحسن المادي الكائن في هذا الوجود الذي يدركه الإنسان بحواسه المختلفة ، وينبعث من تناسق الأشياء واتساقها وتناسب الأجزاء وانتظامها ، وفق هيكلية تكوينية تراعي علاقات المواءمة التي تبعث على انسجام العمل الفني وتناسق النتاج الإبداعي ، وانتظام وحداته الجزئية وتناغم صورته الكلية ، كالنحت والرسم والموسيقى ، وفي الجانب الأدبي : فإن مظاهر الجمال تلوح في المنهجية الفنية والطريقة الإبداعية التي تنتظم البنية اللفظية ، والتراكيب الأسلوبية من حيث تناسب جرسها وانتقاء أصواتها، وحسن ترتيبها وجمال إيقاعها ، وتناسب جملها وروعة تركيبها مع الحالة

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء ، لعلم الدين السخاوي علي بن محمد ، الجزء الأول ، ص ٤٦، تحقيق د / علي حسين البواب ، مكتبة التراث ، مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

النفسية والطاقة الإيحائية التي تختزنها ، فتمنح المتلقي إقناعاً نفسياً وتأثيراً وجدانياً ، وترتقي به إلى معان أغزر في التعبير ومناح أبعد من التخييل ، فأبدعوا وصف المرأة في صور غزلية تبرز حسنها وجمالها ، والخيل في قوة متنها وحسن صورها ، وبريق السيوف في المعارك ولمعانها ، وخرير المياه في الجداول وجريانها ، وهديل الحمام ورجع أصواتها ، وصفات البعير وأشكالها ، وأطلال الديار واندثارها ، ووصف الصحراء ورمالها وشعابها وجبالها .

٢ــ **الجمال المعنوي** : له دلالة أغور وميادين أغزر من الجمال الحسي؛ لأنه يستمد روافده من القيم الإنسانية السامية والمعاني الأخلاقية العالية ، لا ينصرف جماله من بهاء المظهر وحسن المنظر ، وإنما من سلامة الفكر وصفاء الجوهر ، به تتطهر الروح من درن النفس ورجس الشر، ويستقيم القلب حتى يحلق في فراديس المشاعر السامية وتصفو له منابع الأخلاق العالية ، جمال لا يتعلق بالصور المادية والمظاهر الحسية ، وإنما يتعلق بالمعاني التجريدية وتسري أنفاسه في الصور الوجدانية التي لا يبلغ كنهها لفظ ، ولا يستقصيها وصف، وتكل دونها الأبصار، وتنحسر عنها الأنظار ، وقد أبدع الشعراء وصف الانفعالات النفسية التي تعترض حياتهم اليومية كاللقاء والفراق ، والحنين والاشتياق ، والحب واللوعة ، والشجاعة والإقدام ، والوفاء والغدر ، والبخل والبذل ، إلى غير ذلك من الصور النفسية والمعاني الوجدانية التي تهذب النفس وترقى بالحس ، وتبعث على الطمأنينة ، وتجعل المتلقي أكثر تفاعلاً وأقوى تأثراً في رؤيته الجمالية ، فيقبل عليها ويهفو إليها ، فالجمال المعنوي انعكاسٌ واضحٌ لذاتنا وتصويرٌ صادقٌ لمشاعرنا ؛ وهو أعم وأشمل من الجمال المادي ؛ لأنه متصل بالأخلاق والقيم

والمثل العليا ، تسمو به نفوسنا على غرائزها المادية وتقترب أكثر من المعاني الروحية .

المطلب الثاني:(التطور الجمالي والتحليل النفسي في الموروث البلاغي والنقدي)

من صور التطور الجمالي في تراثنا البلاغي والنقدي : الاهتمام بوضع المعايير الفنية والأدوات الإجرائية التي تُعنى برصد المعاني النفسية والانفعالات الوجدانية في الأساليب الأدبية التي تغشى المتلقي وتنتاب فكره وعقله، ووجدانه وروحه ، وقد واكبت العلوم البلاغية والمعايير النقدية هذا التطور الجمالي والتحليل النفسي للأدب ، فإذا كانت النفس من الأدب كالروح من الجسد ، فإن الأدب يحيا بالمشاعر الوجدانية والعواطف الإنسانية والصور التخييلية ، وطبيعة النفس أنها تهوى من يَقْدِر على تمثيلها ويُبرز ما يجيش في أعماقها ، فيشخص حسيّها ويجسد معنويّها ؛ لأن الأدب ليس كلمات صماء تحمل دلالات معجمية خرساء ، وإنما هو ألفاظ مشحونة بالمعاني النفسية والقيم الجمالية التي لا تنفصل عراها عن حلاوة جرسها وحسن إيقاعها وروعة تركيبها في سياقها واكتشاف منابع تكوينها ، وتحديد روافد المفردات الأدبية وإبراز فاعليتها وتأثيرها يحتاج إلى ناقد يهتم برصد الجوانب النفسية التي انتظمت عقدها ، ومعرفة جمالية الكلمات في تعبيرها لمعرفة أثرها الانفعالي ودورها الجمالي ، وبذلك يرتفع النقد الأدبي النفسي من مجرد حكمٍ عابرٍ إلى ركنٍ أصيلٍ في تحصيل القيمة الجمالية في الأعمال الأدبية ؛ لأن مهمة الكلمات في النتاجات الإبداعية هو تخطي الدلالة المعجمية إلى رؤية المشاعر الوجدانية وتقديمها في صورة ماثلة حية ومشاهدة مرئية .

وقد ظهرت بدايات القرن المنصرم العديد من المصنفات التي تناولت الأدب من وجهة نفسية ، وظن بعض المتغربين أن التحليل النفسي للنصوص الإبداعية أبرز نتاجات النظرية الجمالية الأدبية ، ولو أمعنوا النظر في معاييرنا النقدية ومقاييسنا البلاغية قديماً وأعادوا قراءتها ، لتأكد لهم سبق فكرنا العربي ونقدنا الأدبي إلى جُلّ القضايا التي أطَّر لها النقد الغربي الحديث، فقد اكتنه القدماء أسرارها وحلقوا في فضاءاتها ، ووضعوا أسسها الجمالية ومعاييرها البنائية ، ومقاييسها الفنية الفائقة في حقول اللغة المتنوعة ورموزها المتعددة ، فانصرفوا إلى الشعر والنثر والقرآن ، يغوصون في بحار جمالهم ويستخرجون لؤلؤهم ودرهم " ونحن لا نرتاب لحظة واحدة في أن البلاغيين العرب القدامى قد توقفوا عند شكل الجملة اللغوية ؛ ولكنهم لم يروا هذا الشكل محايداً بذاته ..... فقد ارتفع مفهوم التذوق الفني البلاغي لديهم حينما انتهوا إلى أنَّ أي شكل بلاغي يحمل في طبيعته الجمالية وعيّ الإنسان لما يحيط به بطريقة إرادية أو لا إرادية ، وبهذا ارتقوا عن مفهوم الجمال الطبيعي المجسد في ماهية الأسلوب اللغوي ، وخرجوا إلى منطوق لغوي بلاغي يستغرق شبكات عدة من التأويل ، فاللغة والصورة والخيال والإيقاع أدوات يتجسد فيها مضمون ما ينطوي على وظائف متنوعة وأهداف كثيرة ، حين يتكامل مع التجربة الإنسانية ويعبر عنها بكثافة لغوية بلاغية مثيرة وثرية ، مما يحقق للشكل البلاغي الجمالي فلسفة تفسير الوجود والكون والمصير " [١].

(١) جمالية الخبر والإنشاء دراسة بلاغية جمالية نقدية ، د حسين جمعة ، ص ٢٣ دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا، دمشق الطبعة ٢٠١٣م .

ومما اضطلعت به البلاغة العربية ، الوقوف فاعلية المعاني النفسية في النسيج الجمالي للنص القرآني والعمل على تقديمه في هيئة حسية ، وطبيعة وجدانية ، ولوحة تصويرية ، وبيان إعجازه النفسي وتنسيقه الجمالي الذي يشبع حاجات النفس الإنسانية ويوائم متطلباتها النفسية ، فعملت البلاغة العربية جاهدة على استقصاء الظواهر الجمالية في الصور التعبيرية للقرآن ، وبيان أثرها النفسي وطابعها الروحي حين تبلغ مبلغها من قوة التأثير وروعة التعبير ورحابة التصوير ، وقد تنبه **حازم القرطاجني** إلى جمالية البلاغة العربية في رصد المعاني النفسية في القرآن قائلاً : " واعلم أن منزلة حسن اللفظ المحاكي به ، وإحكام تأليفه من القول المحاكي به ومن المحاكاة بمنزلة عتاقة الأصباغ وحسن تأليف بعضها إلى بعض ، وتناسب أوضاعها من الصور التي يمثلها الصانع ، وكما أن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها وإن كان تخطيطها صحيحاً ، فكذلك الألفاظ الرديئة والتأليف المتنافر ، وإن وقعت بها المحاكاة الصحيحة ، فإنا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليه ، ويشغل النفس تأذي السمع عن التأثر لمقتضى المحاكاة والتخييل ، فلذلك كانت الحاجة في هذه الصناعة إلى اختيار اللفظ وإحكام التأليف أكيدة جداً " (١).

وإذا كانت النصوص الأدبية لها بلاغة نصيّة وجمالية فنية ، يومض بريقها ويسنو شعاعها في النفس الإنسانية ، فتحدث هزةُ روحية للمشاعر الوجدانية والانفعالات المعنوية بجمال نظمها وبراعة تصويرها ؛ فإن هذا

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، ص ١٢٩ دار الكتب الشرقية ، تونس ١٩٦٦م .

الانفعال وتلك الإثارة يخبو ضوؤها ، ويخفت أثرها في الذات البشرية رويداً رويداً مع كثرة ترديدها وفيض استخدامها ، إلا بلاغة الأسلوب القرآني والتعبير الإلهي مهما كُررت ألفاظه ، ورُددت آياته ، فإن الآذان تبقى به مشغوفة ، والأبصار إليه مصروفة انبهاراً بجمال نسقه وحسن تركيبه ؛ وأخذه بتلابيب النفوس حتى تعتصم بوحيه النابس ، وتلوذ بنظمه الهامس ، ذاك لأن البيان القرآني يستقي جماله وروعة جلاله من عظمة مبدعه وقدرة قائله ، وهذا كان مثار بحث وتنقيب عن وجه جديد من وجوه الإعجاز القرآني ، غير ما اصطلح عليه علماء اللغة من نسقه البياني ونظمه التركيبي ، فكان الجانب النفسي أحد جوانب الإعجاز التي يمتاز بها التعبير القرآني .

ومن ألوان الجمالية في البيان القرآني الإعجاز النفسي ، الذي له صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس ، وما تحويه ألفاظه من المهابة والرزانة ، والجزالة والمتانة ، ومروج آياته في النفس البشرية فتأسر القلوب بروعة ألفاظها وجودة سبكها ومتانة نظمها ، وقد اعتبر **الخطابي (تـ ٣٨٨ هـ)** هذا اللون أبرز ألوان الجمال في القرآن قائلاً: " قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من أحدهم ، وذلك صنيعه في القلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تكاد تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً أو منثوراً إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها ، وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوٍ للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون

اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن الأول ن وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه ، وصارت عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيماناً "(١) .

وجمالية الإعجاز النفسي في القرآن أمر تثيره كثير من محكم آياته كقوله :" اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ "(٢) ، فالقرآن يؤثر في النفوس النقيّة والطباع السويّة بما يقدحه من معان روحية وانفعالات وجدانية تلامس شغاف القلوب بوقعها ، وتهز النفوس بسلطانها ، وهذا التأثير ليس مرجعه جزالة اللفظ وفصاحته ، ولا روعة النظم وبلاغته فحسب ؛ وإنما نفوذ وقعه في خبايا النفس الإنسانية وسيطرته على عواطفها الوجدانية ، وكم من أناس لا يتكلمون العربية ولا يفهمون كلمة واحدة من مفرداتها ، ولا جملة معينةً من تراكيبها ، وعندما يقرع القرآن آذانهم تخرُّ قلوبهم خاشعة وتفيض أعينهم دامعة ، وما ذاك إلا لأنه قبس من الروح الإلهي الذي يسري في النظم الرباني حين يخاطب الله به عباده .

وتلوح **جمالية القرآن** وبلاغته في **تأثيره النفسي** ، وسحره البياني على أصحاب المودة من أهل الكتاب ، فهم إذا سمعوا آياته ، اهتزت قلوبهم له هزا، وفاضت أعينهم منه دمعا ؛ مما عرفوا من الحق ، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا**

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، للخطابي ص ٦٤.

(٢) سورة الزمر آية : ٢٣.

مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١)، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٣) ، ولقوة تأثيره النفسي وجماله البياني ، كان الكافرون يسترقون السمع من وراء بعضهم البعض ، فيأسرهم سحر كلماته ودقة نظامه وبديع أخباره ، فتواصوا بينهم ألا يسمعوا لهذا القرآن ، وأن يتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة ، حتى يخلطوا على القارئ ويشوشوا عليه ويغلبوا على قراءته ، ففضحهم الله بما تواصوا به في قوله :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٤) ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن ما يكون لغواً وباطلاً ، خوفاً من أن يخترق جمال بيانه ، ودقة نظامه ، شغاف قلوب السامعين .

وينسب **فخر الدين الرازي(٥٤٤هـ ــ ٦٠٦هـ) جمالية التعبير النفسي والتأثير المعنوي** في القرآن إلى عزة بيان قائله ، فهي " تعين على نفاذ الكلام إلى الروح ، والقائل هو رب العزة ؛ لذلك فإن كلامه أنفذ " (٥) ،

---

(١) سورة المائدة : الآية ٨٣.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٠٧- ١٠٩.

(٣) سورة مريم : الآية ٥٨ .

(٤) سورة فصلت :الآية ٢٦.

(٥) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام فخر الرازي ، ج ٢٧، ص ٢٢٠ .

وسلطانه أقوى ، يأسر القلوب بسحر بيانه ، وروعة نظامه ، وتهش له النفوس بدقة نظمه وجمال إيقاعه ، وتتهلل له الأفئدة بحبكة نظامه وسحر بيانه، قال تعالى: " **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** " (١) .

ومن العلماء الذين توصلوا إلى جمالية الإعجاز النفسي للقرآن ، **بن سراقة** في قوله : " اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره . فقال قوم : هو الإيجاز مع البلاغة ، وقال آخرون : هو البيان والفصاحة ، وقال : آخرون هو الرصف والنظم ، وقال آخرون : هو كونه خارج عن جنس كلام العرب من النظم والنثر ، والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم ، وألفاظه من جنس كلماتهم ، وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم .....، وقال آخرون : هو كون قارئه لا يكلُّ ، وسامعه لا يملُّ، وإن تكررت عليه تلاوته "(٢) .

ويذهب **الزركشي (٧٤٥هـ ــ ٧٩٤ هـ)** إلى أن وجه الإعجاز في القرآن وجماليته واقع في جميع ما سبق ، ولا يمكن حصره في وجه واحد من الوجوه التي ذكرها أهل العلم ، ثم أضاف إليها ما يتصل بالجانب النفسي والاتجاه الوجداني في قوله :" أهل التحقيق على أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع ذلك كله ، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده ، مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم

---

(١) سورة المائدة :الآية ٨ .

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ص٤٨٩ .

يسبق ، فمنها : الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعهم ، سواءٌ المقرّ والجاحد ، ومنها : أنه لم يزل ولا يزال غضاً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين ، ومنها : جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادتين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر " (١) .

ـ **إن الانفعالات النفسية والأحاسيس الوجدانية** التي تثيرها ألفاظ القرآن الكريم ، تحدث في المتلقي انجذاباً جمالياً وتأثيراً نفسياً يشعر بالبهجة والمتعة في مواقف الجنة والنعيم ، أو الخشية والرهبة في مواطن النار والجحيم ، عند إدراك مفاهيمها والوصول إلى مضامينها ، ولكن ينبغي أن نحدد هل القيمة الجمالية للبيان القرآني ، تكمن في النظرة الموضوعية لأساليبه التركيبية ، وأنماطه الأسلوبية ، وسياقاته البنيوية ، وهي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل وفق الأذواق ؟ أم إن القيمة الجمالية تكمن في النظرة الذاتية التي تنطبع في قلوبنا وتفيض بها نفوسنا عند تلقينا لآياته وأساليبه ودلالاته ، والحقيقة التي ينبغي التأكيد عليها أن جمالية القرآن تكمن في الجمع بين النظرية الموضوعية والنظرية الذاتية معاً ، ولا يمكن أن تنحصر في واحدة دون أخرى ؛ فجمالية القرآن تتكون في إطاره الشكلي ، ونمطه النصي ، وترتيبه الأسلوبي من ناحية ، ومن ناحية أخرى تكمن في الانطباع النفسي ، والتفاعل الوجداني ،وتأثيره الشعوري في وعي المتلقي ، فالجمال نابع من التفاعل الدائب بين نصوصه ، وبين ما يثيره من متعة حسية ولذة روحية أو رهبة نفسية ؛ ولأن جمالية النص القرآني لا يمكن أن تكون بمعزل عن قضية حياتية ، أو إهمال فكرة دينية أو ثقافة اجتماعية ، لذا فإن جماليته لا تستقل بنظرة واحدة دون أخرى ، وإنما في الجمع بينهما معاً .

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي: ص٤٨٩ .

وللبلاغة دور فاعل في إبراز القيمة الجمالية لألفاظ القرآن في شتى جوانبها اللغوية والسياقية ، فتمنح المتلقي معايير فنية يستطيع بها تلقف ألوان الجمال القرآني ، وكلما كانت الخبرة اللغوية والأدبية التي يملكها المتلقي عند تلقي القرآن عالية ، والإدراك المعرفي لديه بمنزلته سامية ، كان تحصيله للجمال أعلى وجمعه لأسرارها أسمى ، فينبغي التسلح بمرجعيات أدبية وثقافة لغوية تمكن المتلقي من تفسيرها وحسن تأويلها ؛ لأن المتلقي "هو المحرك لعجلة القراءة والمفعل لها ، فلا يمكن أن نصل إلى المعنى ما لم نستعن به ليكشف لنا عن معاني النص ومكامنه " (١) ، ولأن المتلقي عنصر فاعل في الكشف عن جماليات القرآن وليس مستنزفاً لطاقاته ، كان تقصيه أسرار الجمال وتتبع سياقاته أمراً ضرورياً للوقوف على المعاني السامية والتراكيب الراقية التي تصل به إلى دلالاته وحسن تفسيراته وتأويلاته .

وقد لفت النظر إليه العلامة **محمد فريد وجدي** في قوله : " حصر المتكلمون في إعجاز القرآن كل عنايتهم في بيان ذلك الإعجاز من جهة بلاغية ، فكتبوا في ذلك فصولاً ضافية الذبول وبعضهم خصها بالتأليف ، وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة إلا أننا نرى أنها ليست هي الجهة الوحيدة لإعجازه ؛ بل ولا هي أكثر جهات إعجازه سلطاناً على النفس فإن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ، ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده

---

(١) المتلقي بين النظرية والأدب التفاعلي ، باللودمو خديجة ، ص ٣٠ ، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة ، ٢٠١٣ م.

تأثيراً ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك فوجب على الناظر في ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه في مجال آخر يكفي لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذي كان للقرآن على عقول الآخذين به " [١]

ويرجع **فريد وجدي** جمالية الأسلوب القرآني إلى أثره القوي وتأثيره الانفعالي للمتلقي ، فهو آخذ بتلابيب النفوس ووجدانها ، ومسيطر على انفعالاتها وشعورها ، كما ترجع تلك الجمالية إلى المشكاة التي يستقي التنزيل منها نوره ، ويستمد منها ظلاله إنه الله لقوله تعالى : " **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** "[٢] ، فالقرآن عنده معجزٌ بتأثيره النفسي ووقعه الوجداني الذي يقذفه في القلوب من روعة بلاغته وحسن فصاحته ، فما من أحد يسمع إيقاعه إلا استبشرت به نفسه ، وانشرح له صدره .

وفي العصر الحديث أثبتت الدراسات العصرية للبحوث الطبية أن الترددات الصوتية التي يمتاز بها الإيقاع القرآني دون غيره من المؤثرات الصوتية الأخرى تُحدثُ انفعالات نفسية وقيمة جمالية تؤثر على مناطق معينة في جهاز الإنسان المناعي والاعتدال الوجداني ؛ لذلك كان للقرآن أثر عظيم في الشفاء من كثير من الأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية ، والأمراض العضوية وأن تأثيره على القلب آكدٌ وثابتٌ ، وصدق الله إذ يقول: " **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا**

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين العلامة / محمد فريد وجدي ، الجزء السابع ص ٦٧٧ دار المعرفة ، بيروت ــ لبنان ــ الطبعة ١٩٧١م.

(٢) سورة الزخرف : الآية ٥٢ .

خَسَارًا "[١] ، فالقرآن إذا قرعت آياته الأسماع فإنها تأسر القلوب بجمال نظمها وروعة إيقاعها ، وتنشرح لها الصدور بحسن بيانها ودقة أدائها ؛ ولهذا فقد عرف الكافرون هذه الخاصية ، فكانوا يتناهون عن سماعه ويتناصحون باللغو فيه بالصياح ، والمكاء، والتصفير ، والتخليط حتى لا تخترق آياته شغاف القلوب بجمال جرسها ، وروعة وقعها ، ودقة نظامها ، حسن بيانها .

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٢

الخاتمة

بعد هذا التطواف الممتع في رحاب تراثنا البلاغي والنقدي نقف على أبرز النتائج التي توصل إليها البحث البلاغي (النظرية الجمالية في البلاغة العربية) ويمكن إجمالها في الآتي :

١ــ الجمال شعور ذاتي وإحساس غريزي يتولد في أعماق النفس الإنسانية عند التفاعل مع الأشياء التي نهواها، ولا نستطيع جمح نفوسنا أمام دلها ونجواها ، لكن يبقى الإدراك الجمالي للأشياء نسبياً ، لتمايز الناس في طبائعهم ، وتباين أذواقهم في سلائقهم ، فما يراه البعض جميلاً قد يراه الآخر قبيحاً ، لكن الحكم الجمالي يحتاج إلى ومضة خاطفة من الجمال الفطري والجلال الروحي حتى تنطلق من ملاحة الأشياء الظاهرية إلى محاسنها الباطنية ، يسلك بها المتلقي دروب العمل الفني والنص الإبداعي ، ويشق بها قنوات يلج فيها إلى القوة الإبلاغية والغايات الدلالية التي تسري في غياهب النص .

٢ــ مصطلح الجمالية من المفاهيم النقدية التي تتطلب ناقداً حاذقاً ، متسلحاً بذخيرة معرفية وأدوات إجرائية ، يستطيع بها تحليل الأعمال الأدبية ونقدها وفك شفراتها وترجمة رموزها ، وحسن تأويلها وإجادة تفسيرها ، حتى يصدر حكما نقدياً متوازناً ، ويقدم تفسيراً فنياً متوائماً مع مقتضيات الحال ومتطلبات السياق ، فيبرز المعاني الخفية والدلالات التصويرية في النصوص الأدبية ، ويخلق في المتلقي قوة انفعالية تعينه على فك رموزها وتحديد أغراضها ، متسلحاً بعدد من المقاييس النقدية والفنون البلاغية التي يتزود بها الناقد في معرفة الفروق الفنية للأبنية النصية ، ويعلم السياقات البليغة

والصور البديعة التي تضطلع بها البني الأسلوبية والتراكيب اللغوية ، وتعمل على تكثيفها وإبرازها في لوحات جمالية وصور فنية.

٣ــ الجمالية العربية تشكل طرازاً من الانسجام والألفة بين المتلقي والنص ، فهي تغلف المعنى بغلالة رقيقة من الغموض ، حتى تستفز مشاعر المتلقي وتلهب ملكاته المعرفية ، وخبرته الذوقية لفك رموزها وهتك حجابها ، وتفسير دلالاتها ، وهذا سر جمالية النصوص الإبداعية وجوهر العملية النقدية، ويتمثل ذلك في الاستعارات البعيدة ، والتمثيلات المركبة ، والكنايات الموحية التي تتعدد فيها التأويلات ، وتتنوع معها التفسيرات شرط ألا تمعن في غموضها ولا تبعد في تفسيرها عن الأعراف النقدية والمعايير الأدبية ، فتستحيل أحاجي عمياء ، وألغازاً صماء .

٤ــ الجمالية تحتاج إلى فكر وقاد ونظر حاد ، يشعر المتلقي بلذة الحصول على المعنى بعد كد الذهن وإعمال الفكر ، وروعة التخييل وجدة التصوير ، فليست مرجعية الجمالية المعاني القريبة المبتذلة التي يسهل إدراكها ويشترك في فهمها العامة ، وإنما المعاني العميقة التي يدركها الخاصة، وتتوارى خلف الدلالة الخفية التي يكتنفها الترميز والتكثيف والتخييل، ويحتاج إنجازها وهتك أغلالها إلى متلق حصيف يجاوز بها المعاني الظاهرة إلى الدلالات الباطنة التي تحتاج قدراً كبيراً من التفسير ، وتتعدد معها وجوه القراءة والتأويل ، ويمتلك فيضاً زاخراً من الأدوات المعرفية والوسائل الإجرائية التي تعينه على تقليب النص على وجوه مختلفة ، تتعدى في أجوائها التفسيرات الخارجية الذي تتبناها المناهج النقدية والدراسات البلاغية .

٥ــ إذا كانت الجمالية لم ترد في تراثنا العربي مصطلحاً أدبياً ، فقد تناولها نقادنا الأوائل وصفاً ضمنياً في مباحث الإعجاز البياني التي اختص بها النص القرآني ، وبزّ غيره من وسائل التعبير وفنون التصوير، وعلم البلاغة العربية أبرز علوم العربية التي وُظفت توظيفاً كبيراً ؛ للكشف عن جماليات الخطاب القرآني ، وتأثيره البياني في وجدان المتلقي ، فقامت بتأطير معايير نقدية تُعنى بالذوق الفني والإبداع الأدبي في القرآن والشعر ، فسنوا القواعد البلاغية واستقصوا الشواهد القرآنية ، والأبيات الشعرية ، ووضعوا المعايير الفنية التي تعين على توضيح الأساليب القرآنية ، ومعرفة أسرارها، وتحديد أوجه إعجازها ، والغوص في خضمها الزاخر باللآلئ الفنية ، والعناصر الجمالية ، والفرائد اللغوية التي تحدى بها البيان القرآني أرباب الفصاحة وأعلام البلاغة .

٦- شكلت البلاغة بعلومها الثلاثة : **المعاني والبيان والبديع** المنحى الجمالي للنظرية الجمالية العربية ، **فعلم المعاني** ساهم في وضع المعايير الفنية والمقاييس الجمالية للمفردة العربية التي تبحث فصاحتها ، وتناسبها الصوتي ، وتكثيفها الدلالي ، وجمالها السياقي ، وانسجامها التركيبي ، وتضمن سلامتها من العيوب ، وتنأى بها عن التنافر، والغرابة ، والابتذال ، والضعف ومخالفة القياس ، وتعمل على مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومتطلبات المقام ، وتأدية المعنى بطرق تأثيرية ووظيفة جمالية ، تمنح الكلام حسناً وتزيده جمالاً وفضلاً ، **والبيان** : تناول جمالية أداء المعنى الواحد بطرق تخييلية ومعان تكثيفية ، تنحرف فيه النصوص الإبداعية من الدلالة الوضعية إلى الدلالة المجازية ، التي تثير الخيالات الذهنية ، وتستنفر مشاعر المتلقي الوجدانية ، من التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والتصوير

والتشخيص والتجسيد ، **والبديع** : يبحثون فيه الجمالية المعنوية والمحسنات اللفظية التي تعمل على ابراز المعاني في صورة قشيبة ، وهيئة رتيبة ، ولوحة بديعة، تلفت الأنظار بحسن جرسها ، وجودة سبكها ، وروعة إيقاعها .

٧ــ انشعاب مصطلح الجمالية ليشمل جميع جوانب علوم البلاغة ، التي كانت صرحا بارزاً من صروح النظرية الجمالية ، وما دبجه علماؤنا الأوائل ومنهم حازم القرطاجني، وابن سنان الخفاجي ، والإمام عبد القاهر ، ويحي بن حمزة العلوي ، وغيرهم ، يمثل طوراً مهماً من أطوار الجمالية العربية في عمقها، وأهدافها ، وخصائص تراكيبها ، وتصويرها ، ودقة معاييرها ، وصفاء نظامها ، وعذوبة مقاييسها التي تجمع بين جودة السبك ورقة الطبع وسلامة الذوق ، حتى وصلت لآفاق أرحب مما وصلت إليه النظرية الجمالية في المدرسة الغربية ؛ لكنها ركزت اهتمامها بالمفردة والجملة ، وهي في حاجة ماسة إلى توسيع نطاقها ؛ لتشمل الفقرة، والعبارة ، والنتاج الإبداعي كاملاً ، لاستشراف آفاقه الأدبية ، وسماته الفنية ، وقيمه الجمالية ، وليس هذا تهويناً بجهود السابقين ؛ وإنما هي محاولة لإكمال ما أسس المتقدمون بنيانه .

٨ ــ شكلت الجمالية العربية بمظاهرها المختلفة اللفظية ، والصوتية ، والسياقية ، والدلالية ، والبيانية محور الدرس البلاغي والنقدي ، والمتتبع لتراثنا العربي يتراءى له جهود علماء اللغة والبلاغة والنقد ، والمفسرين في تفاسيرهم وتحليلاتهم ، ووضع معاييرهم ، ومقاييسهم ، واهتمامهم بالقيمة الجمالية للنصوص القرآنية ، والنماذج الشعرية ، والنثرية ، وتناولوا المعطيات اللغوية والأطر الفنية التي تسهم في ترسخ آليات النظرية الجمالية فيها ، وما تحققه من لذة فنية ومتعة إبداعية تجعل المتلقي ينجذب إليها انجذاباً ويتجاوب معها انفعالاً.

٩ــ تراثنا البلاغي والنقدي تراث ضخم ، قادر على الاضطلاع بمهمة فنية ، وسمة جمالية ، تفوق به المبادئ الجمالية عند المدرسة الغربية الحديثة، ويتطلع البحث إلى اعتماد مصطلح " **الجمالية** " بوصفه مرحلة حديثة من مراحل البحث البلاغي ، لتأسيس نظرية جمالية عربية ، تستفيد من الأفكار ، والمعايير ، والمقاييس الفنية التي أسس البلاغيون والنقاد قديما بنيانها ، والعمل على توظيفها توظيفاً جيداً في ضوء الدراسات اللغوية واللسانية والنقدية الحديثة .

١٠ــ الجمالية في البلاغة العربية لا يمكن اختزالها في جانب واحد من علومها ، أو حصرها في قضية مفردة من قضايا خطابها ، وإنما بما تفرزه جميع هذه العلوم من معايير فنية ومقاييس بيانية ، تنتهج سبيل السمات الأسلوبية التي تروم جرس الأصوات في مفرداتها ، وتأويل المفردات في جملها ، وتسبر أغوار الجمل والعبارات في تراكيبها ، ووضع الأطر والمعايير التي تؤسس لجمالياتها ، لتقدير القيمة الفنية للأساليب العربية ، وإبراز عناصرها الجمالية التي تبحث الانسجام اللغوي ، والتناسب السياقي ، والائتلاف الدلالي في النتاجات الفنية والظواهر الأسلوبية ، والاعتناء بتراكيبها وخصائص أسلوبها ، ومعالجتها في إطار من التذوق الجمالي والتنوع الأسلوبي .

١١ــ وقفت الدراسة على جمالية التفسير النفسي والإعجاز البلاغي للقرآني، فكان وجها آخر من وجوه الإعجاز البياني ، وهو مجال يستوجب المزيد من الدراسات البلاغية التي تعنى بتجلية جمالية الإعجاز النفسي في القرآن ، في ضوء الدراسات التداولية واللسانية والبلاغية لبيان الأسرار الجمالية والنفسية والدلالية للقرآن.

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١-	ملخص	٣٦٥١
٢-	Abstract	٣٦٥٢
٣-	المقدمة	٣٦٥٣
٤-	المبحث الأول : النظرية الجمالية في جذورها العربية.	٣٦٥٩
٥-	الجمالية لغة.	٣٦٦١
٦-	الجمالية اصطلاحاً.	٣٦٦٤
٧-	المبحث الثاني : بواكير الجمالية في المدرسة الغربية	٣٦٦٧
٨-	ـ تعريف علم الجمال	٣٦٦٧
٩-	ـ السفسطائيون	٣٦٦٧
١٠-	ـ الفيثاغوريون	٣٦٦٧
١١-	ـ سقراط	٣٦٦٧
١٢-	ـ أفلاطون	٣٦٦٨
١٣-	ـ المدرسة الرواقية اليونانية	٣٦٦٩
١٤-	ـ أرسطو	٣٦٦٩
١٥-	ـ أفلوطين	٣٦٧٠
١٦-	ـ كانط	٣٦٧١
١٧-	ـ شوبنهاور	٣٦٧٢
١٨-	ـ كروتشه	٣٦٧٣
١٩-	ـ المدرسة الشكلانية الروسية	٣٦٧٤
٢٠-	ـ المدرسة البنيوية.	٣٦٧٤

م	الموضوع	الصفحة
٢١-	المبحث الثالث : الجمالية في فكرنا البلاغي وتراثنا النقدي.	٣٦٧٦
٢٢-	المطلب الأول : البلاغة العربية والغاية الجمالية.	٣٦٧٨
٢٣-	المطلب الثاني: فاعلية النظرية الجمالية في البلاغة العربية.	٣٦٨٠
٢٤-	المبحث الرابع : بواكير الفكر الجمالي في موروثنا النقدي والبلاغي.	٣٦٨٣
٢٥-	المطلب الأول: الآراء النقدية والمعايير الفنية للجمالية عند البلاغيين والنقاد	٣٦٨٦
٢٦-	ـ الجمال عند الجاحظ.	٣٦٨٦
٢٧-	ـ الجمال عند ابن طباطبا.	٣٦٨٨
٢٨-	ـ الجمال عند الآمدي.	٣٦٩٠
٢٩-	ـ الجمال عند الخطابي.	٣٦٩١
٣٠-	ـ الجمال عند القاضي الجرجاني.	٣٦٩٢
٣١-	ـ الجمال عند أبي هلال العسكري.	٣٦٩٢
٣٢-	ـ الجمال عند ابن سينا.	٣٦٩٣
٣٣-	ـ الجمال عند عبد القاهر الجرجاني.	٣٦٩٥
٣٤-	ـ الجمال عند الإمام الغزالي.	٣٦٩٧
٣٥-	ـ الجمال عند بن الأثير أبي السعادات الشيباني الجزري .	٣٦٩٨
٣٦-	المطلب الثاني: الجمال المادي والمعنوي في فكرنا البلاغي ووعينا النقدي	٣٦٩٩
٣٧-	المبحث الخامس :المعايير الجمالية والمقاييس الفنية في موروثنا النقدي والبلاغي.	٣٧٠٢
٣٨-	المطلب الأول : التناسق التعبيري والتناسب التركيبي.	٣٧٠٤
٣٩-	المطلب الثاني : الانسجام الصوتي والتوازن الإيقاعي.	٣٧٠٨

الترقيم الدولي الإلكتروني
ISSN 2636 - 316X

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

م	الموضوع	الصفحة
٤٠-	ـ الانسجام الصوتي عند السيوطي.	٣٧٠٩
٤١-	المطلب الثالث: الفصاحة عنصر الجمال الصوتي في التراث البلاغي	٣٧١٢
٤٢-	ـ الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي.	٣٧١٢
٤٣-	ـ الفصاحة عند ابن الأثير.	٣٧١٣
٤٤-	ـ الفصاحة عند صاحب الطراز.	٣٧١٤
٤٥-	ـ الفصاحة عند الخطيب القزويني.	٣٧١٥
٤٦-	المطلب الرابع: الإيحاء عنصر الجمال التخييلي في التراث البلاغي	٣٧١٧
٤٧-	١ـ الإيجاز في النظرية الجمالية العربية.	٣٧٢٢
٤٨-	٢ـ الخيال في النظرية الجمالية العربية.	٣٧٢٤
٤٩-	المبحث السادس: (أنواع الجمال الأدبي في موروثنا النقدي والبلاغي)	٣٧٢٥
٥٠-	المطلب الأول : الجمال الحسي والجمال المعنوي .	٣٧٢٦
٥١-	المطلب الثاني : التطور الجمالي والتحليل النفسي .	٣٧٢٨
٥٢-	ـ الجمال النفسي عند حازم القرطاجني.	٣٧٣٠
٥٣-	ـ جمالية التعبير النفسي في البيان القرآني عند الخطابي.	٣٧٣١
٥٤-	ـ جمالية الإعجاز النفسي في القرآن.	٣٧٣٢
٥٥-	ـ جمالية التعبير النفسي عند فخر الدين الرازي.	٣٧٣٣
٥٦-	ـ جمالية التعبير النفسي عند الزركشي.	٣٧٣٤
٥٧-	ـ جمالية التعبير النفسي عند العلامة محمد فريد وجدي.	٣٧٣٦
٥٨-	الخاتمة.	٣٧٣٩
٥٩-	فهرس الموضوعات	٣٧٤٤